

المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ وَالحَمَلَاتُ الغَرْبِيَّةُ ضِدَّهَا

للدكتورة خديجة الكشك
(أستاذة الأدب العربي بفرنسه)

تقديم

الدكتورة أمال نجّاري
(دكتوراه في الأدب الفرنسي)
جامعة عبد المالك السعدي/تطوان-المغرب

دار ابن حزم

المَرأَةُ المُسلِمَةُ
وَالحَمَلَاتُ الغَربِيَّةُ ضِدَّهَا

بسم الله الرحمن الرحيم

المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ
وَالحَمَلَاتُ الغَرْبِيّةُ ضِدّهَا

للدكتورة خديجة الكشك
(أستاذة الأدب العربي بفرنسا)

تقديم

الدكتورة أمال نجاري
(دكتوراه في الأدب الفرنسي)
جامعة عبد المالك السعدي/تطوان-المغرب

دار ابن حزم

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-980-8

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم
بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)
البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

الإهــداء

إلى من ربّياني على الإسلام: والدي الحبيب الشيخ محمد الهادي الكشك ووالدتي الفاضلة السيدة صفية النيفر أسكنهم الله فسيح الجنان...

إلى من ساندني في الطريق: زوجي العزيز محسن العياشي....

أهدي هذا العمل المتواضع قطرة حياة امتدت في الدراسة والتأليف وزهدت في النشر والتصنيف عساها تكون أول الغيث وعسى الله أن ينفع بها ويبدد بعض الظلمات فيسدد مسار المسلمين والمسلمات إنه مجيب الدعوات.

الفقيرة الى ربها خديجة

تقديم د. أمال نجّاري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فإنَّ الْغَرْبَ عَلِمَ مِنْ قديم، أَنَّ «**المَرْأَة المُسْلِمَة**» مِنْ («أَعْظَم أَسْبَابِ الْقُوَّة في المجتمع الإسلامي»)؛ فهي الأُمّ، والأخت، والزوجة؛ وهي مُرَبِّيَةُ الرِّجَالِ والأجيال.

وإِنْ كانت المرأةُ تُشَكِّلُ نِصْف المجتمع، فهي التي تُرَبِّي النصْفَ الآخر، وَصدَقَ الشاعر إِذْ قال:

الأمُّ أُسْـتَـاذُ الأسـاتـذة الأُلَـى
شـغـلـت مـآثـرهـم مـدَى الآفـاق

ولذلك، وضَعَ الغَرْبُ كل الخِطَطِ لإِفْسَادِ «المرأة المسلمة»، بِدَعْوَى أنها مظلومة... مُجْبَرَةٌ على ارتداء حجابها... فاقدةٌ لِحُقُوقها الأَوْلَوِيَّة أمام (رجل مسلم ظالم).

وَهُمْ يَنْسَوْنَ أَنَّ فَضْل ديننا هُوَ الذي حَفِظَ حقوق المرأة، وأنها ما كُرِمَتْ قَطُّ إلا في الإسلام، وَأنَّه الّذي رَفَعَهَا إلى مكانة عالية، فجعلها شريك الرجل.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وهم يتجاهلون أَنَّ «حجاب المرأة» عِفَّة، وشَرَف، وكرامة لها؛ في حِين تُسْتَغْمَلُ المرأةُ في الغَرْب سِلْعَةً رخيصة، وَدعاية يُسَوِّقُونَ بها بَضَائِعَهم ومُنْتَجاتِهم.

وقَدْ تَمَّ وضْعُ خِطَطٍ لِتَشْكِيكِ **«الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمة»** فِي قِيَم دِينها، ولِجَلْبِهَا إلى أَخْلاَقٍ بَعِيدَةٍ كل الْبُعْدِ عَنِ **«الْقِيَم الإسلامية»**، مِمَّا جَعَلَ الْفَتَاةَ والْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَة تَذُوبُ في ثقافة الْغَرْبِ، نَاسِيَةً أَمْجَادَ أُمَّتِها، وتاريخَها، ولُغَتَها...

ومِمَّا يُؤْلِمُ القَلْب، أَنَّ هَذِه الاسْتِرَاتِيجِيَّات الْمُكَثَّفَةَ جَعَلَتْ بَعْضَ الْفَتَيَاتِ ـ عَبْرَ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ الأُنْثَوِيَّة الْغَرْبِيَّة ـ تُحَارِبْنَ أَخَوَاتِهِنَّ، وَأُمَّهاتِهِنَّ!

وهكَذَا رَاح الغَرْبُ يُطَارِد **«المرأة المسلمة»** بِكُلِّ السُّبُل، فَيَتَهَجَّمُ عَلَيْهَا، ويُفَكِّرُ نِيَابَةً عنها.

والإعلام، مِنْ أَبْرَزِ هذه الوسائل، فاسْتُعْمِلَتْ الصُّحُفُ، والإِعْلاَمُ السَّمْعِيُّ الْبَصَرِيُّ بِالخُصُوصِ لِنَشْرِ أقوال... وادِّعَاءَات... واتِّهَامَات... في أَفْكَارِ الْجُمْهُور الْغَرْبِيّ، مُسْتَعْمِلاً سُلْطَةَ الإِقْنَاع والاقْتناع، مِنْ أَجْلِ التَّأْثِير فِي رَأْيِ الْعُمُوم... كَمَا كُتِبَتِ الرِّوَايَات، والْمَقَالاَت؛ وَاسْتُعْمِلَت الصُّورَةُ لِتَرْسِيخ بَعْضِ الشُّبُهَاتِ الْمُبَالَغَة، والأَفْكار السَّلْبِيَّة،

في زَمَنٍ تتسارَع فيه الأحداث، وتَتَطَوَّر فيه وسائلُ الاتِّصال، حتّى أصبح الغَرْبُ يَتَغَذّى عَلَى خِطَابٍ إعْلاَمِيٍّ مُوَحَّد...

فَما هو نَوْعُ هذه الحَمْلة الإعلامية؟
وما هي خُطُورَتُها؟

إنَّ تَهَجُّمَ الْغَرْبِ وَإعْلاَمَهُ عَلَى «**المرأة المسلمة**» يَجِبُ أَنْ يُقَابَلَ بِالدِّفَاعِ عن قِيَمِها ومبادئها في زمن التواصل و«**حرب القلم والصورة**»، فَالْمَرْأَةُ أولَى بِذَلك.

مِنْ هُنَا؛ جاء هذا الكِتَابُ الكريم: (**المرأة المسلمة والْحَملاَت الْغَرْبية ضِدَّهَا**) للأخت الفاضلة الدكتورة خديجة الكُشك ـ حفظها الله وَتَقَبَّلَ مِنَّا ومِنْهَا صَالِحَ الأعمال ـ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين، وَلِتُرَاجِعَ **الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ** تَارِيخَها، وتُمَثِّلَ دِينَهَا أَحْسَنَ مِثَال؛ وَأَنْ تُدْرِكَ أَبْعَادَ هَذِهِ الحملة الإعلامية، فتَعْرِفَ كيف تَتَعَامَلُ مَعَهَا؛ وأن تكون «**المرأة المسلمة**» حَقًّا مَصْدَرَ تَصْدِيرِ قِيَمِنَا وأخلاقنا للغَرْب، سواء في

الْـمَـنْـزِل، أو الـشَّـارِع، أو الـمـدرسـة، أو حـتـى العمل...

فَمُسْتَقْبَلُ المرأة المسلمة في الغَرْب ـ بدون شك ـ مُتَعَلِّقٌ بِعِلْمِهَا، وَوَعْيِهَا وخُلُقِهَا، وَحُسْنِ أَدَبِهَا.

وَأَسْـأَلُ الله تَـعَـالَـى أن يَـجْـعَـلَ لِـهَـذَا الـكـتـاب: القَبُول الْحَسَن عند أَخَوَاتِي الْمُسْلِمَات، وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا فيه... آمين.

وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أمال نجّاري

تطوان في صباح يوم فاتح ذي القعدة
١٤٣٠هـ ـ ٢٠/أكتوبر/٢٠٠٩م

الفصل الأول

- تمهيد.
- تعريف الحملة الإعلامية.

تمهيد

إن الشبهاتِ الحائمةَ حول الإسلام ـ خاصة في هذه الأيام وهذه الظروف العصيبة ـ حيث تَأَلَّبَتْ قُوَّاتُ الشرق والغرب في آفاق الدنيا وأقطابها على مهاجمة الإسلام والمسلمين، واتهامهم بما يَنْدَى مِنْ ذِكْرِهِ الجبين.

نحن اليوم، وفي اللحظة الراهنة، شَأْنُنَا شأن **طارق بن زياد** في عُبُورِهِ مَضِيق **جبل طارق**: فإما إلى نصر، وإما إلى قبر.

إننا اليوم مُتَّهَمُونَ بالإرهاب الحضاري... وبالهمجية... وبالْحُمْق الفكري... وبالأنانية... وبالعُقْم المعرفي... وبالعنصرية.

بكل ما ليس لنا فيه، وبكل ما يشهد الله قبل العالَم ـ أحراره ومنصفيه ـ أننا بريئون منه، براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب ، ولكنها الأيام تفعل ما تشاء، ولِلَّه تعالى في خَلْقِهِ شؤون.

الإسلام إذاً مُتَّهَمٌ اليوم؛ فهل مِنْ مُدَافِع أو نصير؟ أو هل من خصم عادل أو بصير؟ حتى يستبين الحق، ويُزهَق الباطل كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ولَيْتَ الذين يتهموننا ويتهجمون علينا، كانوا مُنْصَفِين أدنى الإنصاف، أو على بَصَرٍ وبصيرة، فيتبيَّنُ لهم الحق، فلا يرموننا بما ليس فينا، أو بما هو فيهم أصلاً، ولا يُسْلِمُون لسيفه قولاً، قبل تَبَيُّنِهِ والتَّثَبُّتِ منه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ⑥﴾ [الحجرات: ٦].

ولكن، كل إناء بما فيه يَرْشَح.

ثم بِمَ يتهموننا؟...

وَمِنْ أي مَنفَذٍ ينفُذون؟

المنافذ عديدة لمن شاء التَّجَنِّي، كما قال الشاعر:

فَعَيْنُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ
كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِئ

ورحم الله المتنبي حين قال:

. . . .
تَكَسَّرَتِ النِّبَالُ عَلَى النِّبَالِ

ولكن، المنفذ الأوسع إلينا، والمنقد الأشهر علينا، هو وضع **المرأة في الإسلام**... من هنا كان اختيار موضوع:

(المرأة المسلمة والحملة الإعلامية المضادة)

موضوعنا لهذه المحاضرة، وهو موضوع تفرضه الظروف قبل أن يفرضه الواقع، موضوع كان ولم يزل المَزْلِقَ لِذَوِي الأبصار الكليلة، وذوي القلوب العليلة، يتهجمون منه على الإسلام، مدّعين

الشفقة على **المرأة المسلمة**، والرِّثاء لحالها، وكأنّ **المرأة المسلمة** نَصَّبَتْهُمْ عليها دَعِيًّا، وإليها سَمِيًّا...

ومهما يكن من أمر، فلئن قيل قديماً:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي
فَأَعْفُو ثُمَّ أَقُولُ لاَ يَعْنِينِي

كُنَّا نقولها من ذي قبل، أَمَا وقد بلغ السيْل الزُّبَى، فلا بد من طرْح الصمت، إذ لم نعد نرى هذا الرأي، فلم يَعُد لصابر صبْر، ولا لحليم خَفْر.

ولَكِنْ قبل هذا وذاك، نرى من المفيد ـ بَدْءاً ـ أن نتعرف على **المرأة**، مَنْ تكون؟

وهو سؤال فيه من السَّذَاجَة ما فيه؛ ولكننا نتعمده حتى نُثْبِتَ أنَّ **المرأة في الإسلام** شقيقةُ الرجل، سَوَاءٌ بِسَوَاء، وأنها الوجه الآخر للصورة، صورة **المجتمع العربي الإسلامي**، بَلْ إنها **جوهر المجتمع** إن كان الرجل عرَضَه؛ وهي بَاطِنُه إن كان هو ظاهره؛ ثم إن **المرأة المسلمة** هي التي

ترتدي **زِيًّا إسلامياً** يُمَيِّزُهَا عن سِواها كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ذلك أن **الحجاب الإسلامي** اليوم، هو الذي صار مَدْعَاةً للإذاية، والأذى المادّي منه أو المعنوي.

فهذا الرجل المسلم قد يكتم إسلامَه فلا يُعرَف، أما **المرأة المسلمة** فشأنها آخر، لا خفاء للإسلام، فَلِلْحُبِّ رائحة، وليس بوُسْعِها ألا تفوح مزارع الدَّرَّاق.

لا ريب إِذَنْ في انتماء **المرأة المسلمة** ولا دَخَلْ...

ثُمَّ مَن هي المسلمة؟

إنها طَبْعاً المُلْتَزِمَةُ بحدود الإسلام وأركانه الخمسة؛ وهي بين وَضْعَيْن لا ثالث لهما...

فإما أن تكون قائمة بأمور دينها وملتزمة بحجابها، وإما منتمية إلى الإسلام من بعيد بعيد،

بمعنى: تصوم وتصلي مثلاً، متخفية لغاية أو لسواها، غير معلنة إسلامَها؛ أو غير ملتزمة بحجابها، وكلتا المرأتين **مسلمة**، وليس من غرضنا التشكيك في النيات، أو التقليل من الأعمال، والتهجم على الناس، فلكل امرئ شَأْن يُغْنِيه.

ومنذ متى كان الإسلام مُحاسَبَة للآخر؟

حاشا لله، إنما أردنا بهذا الطرْح أن نشير إلى المقصود بالهجومات على الإسلام، إنها المرأة مهما كان التزامها، **فوضع المرأة** لدينا أَصْلاً وبادئ ذي بدء هو الْمُتَّهَم، وهو مدار القلم.

تعريف
الحملة الإعلامية

(الحملة) أصلاً، تعني: الحَمْلَ على الشيء، أي: محاربته ومحاولة القضاء عليه، **ومحاضرتنا هذِه** سَتَكُونُ إِذاً في هذا السِّيَاق والصَّدَد[١].

أما **(الإعلامية)**؛ فَنِسْبَةٌ إلى الإعلام، وهو ما تعرفون جميعاً، وما خبرتموه بحكم المعايَشَة: من **صُحُف**، ومقالات مكتوبة كانت أو مسموعة، مشاهدة أو ملموسة عن طريق التلفزة، والإذاعة، وكذلك الكتب، والسينما، والقصص الروائية،

(١) هذه المحاضرة كنت قد أَلْقَيْتُهَا بِمَدينة بَادُوفَا (Padova) الإيطاليّة في ٢٥/٤/١٩٩٨م ـ ١٤١٩هـ؛ بمناسبة انعقاد مؤتمر: (دور الأسرة في التربية للفرد والمجتمع).

والمسرح، **والأنترنت**، إلى غير ذلك من مختلف الوسائل.

ومن أهم هذه الوسائل: **الصحافة**، فهي على تنوع أشكالها التي تستطيع أن تهيمن على أفكار الجماهير مهما تنوعت مستوياتهم أو اختلفت، لا سيما البعيدون عن دُور العلم والتخصص في مجالات المعرفة، ممن لا يتسع لهم وقت أكثر للاطلاع على ما تحمله الصحف اليومية إليهم، وما تؤثر به عليهم.

ولا يَخْفَى إذن خَطَر هذه **الوسائل** الْمُستَحْدَثَة، فهي التي تُوَجِّهُ رَأْيَ جمهور الناس، بحيث لا استقلال فكري لهم بدونها، زد على ذلك أننا نعيش في الزمن الذي بشَّر به الرسول الأكرم ﷺ ضِمن علامات قيام الساعة في حديثه عن تقارب البلدان؛ فما أصبح بالغَرْب أضحى بالشَّرْق، وما أظهر بالشَّرْق أمسى بالغَرْب، والأرض قاطبة إناء ساكب: يُصَبُّ عليها بدانيها، ويؤثر قاصيها بحاذيها.

وهكذا، نستبين **موضوع محاضرتنا**، فهو ما يلقى في الساحة الإعلامية مُناوِئاً للمرأة **المسلمة**، مُتهجماً عليها مُنَاهِضاً، حَاطًّا مِن شأنها وشأن الْتِزَامِهَا بدينها، الذي ارتضته، يُلْقِيه المتهجمون عليها من الشَّرق وخاصة من الغَرْب، سواء بسواء، ولئن كنا سَنُرَكِّز بِحُكْم واقعنا الْجُغْرَافي على **نظرة الغرب للمرأة المسلمة** فَتَرْكِيزنا مُنطلقاً، تركيزاً صُورِياً شكلياً، فقد تعددت الأسبابُ والموت واحد... وكلهم يَدِينُ بِنَفْس المعتق:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثم أليس الغَربُ اليوم سيِّدَ الدنيا وقُطْبَ الرَّحَى، يُوَجِّهُ العَالَمَ أَنَّى ارتَضَى، فإنْ دعا بأنْ نَغُصّ، قال الدَّهر: آمينا؟

ما تكون إذن هذه الحملة الإعلامية من الغَرْب؟

وما هي أسبابُها وجُذُورُها؟

وما هي مَظَاهِرها وفروعها؟

ثم ما تَرَى يكون نِتَاجُها وحَصَادها؟

ثم ما هو هذا الماضي بالنسبة لموضوعنا: موضوع: نظرة الغَرْب للمرأة المسلمة؟

لقد كانت للغَرْب معنا مَوَاعِيد ثلاثة عَبْر مُخْتَلَف العُصُور، فما تراها تكون؟

ظهرت **الدعوة الإسلامية** بفضل الله تعالى منذ حوالى خمسة عشر قرناً، كآخر **دين سَمَاوِي يُقِرُّ** صَوَاب الأديان السابقة له، ويُفَنِّدُ خَطَأَهَا، فكان بَدِيهِيًا أنْ يَلْقَى مُعَارَضَة وأَيَّة مُعارَضة مِمَّن دَانَ بالأديان القديمة، وشَعَرَ بِتَجَاوُزِ الزَّمَن له، فكانت المواجهة، وحُورِب الإسلام في مَهْدِهِ، واسْتُهْدِف مُمَثِّلُوها كُلُّهُم، ونُكِّلَ بهم أي تنكيل؛ فكانت **الفتوحات الإسلامية** كَفًّا لأَذَى الكفار عن المسلمين **(أوَّلاً)**، وحَدًّا من سلطانهم عن الناس أجمعين **(ثانياً)**، حتى يَكُفُّوا أَيْدِيَهُم عنهم ويَتْرُكُونَهم وما يشاؤون...

فإمّا إلى الإسلام... وإما إلى الكفر... إما

إلى جنة... وإما إلى نار... حتى يُتِمَّ الله نورَه فلا تَبْقَى للناس عليه جلَّ وعلا حُجَّة، وحتى يكون لكل امرئ منهم شَأْنٌ يُغْنِيه... شَأْنُ تَخَيُّرِهِ حُرًّا بلا قَيْد، وفَرداً بلا غِلّ...

وشاءت رحمةُ ربك أنْ يُتِمَّ اللّهُ نورَه ولو كره الكافرون، فانتشر الدين الجديد في الأَصْقاع أجمعها، وأقبل عليه الناس نَاهِلِين آمِنِين، فكان **(الزمن الأول)** ـ زمن الرسول الأكرم ﷺ والخلفاء الراشدين ـ زمناً رَأَى فِيهِ الظَّالِمُ الإسْلاَمَ عَدُوًّا مُحَارِباً؛ ورأى فيه الْمَظْلُومُ ـ وما أكثره ـ صَدِيقاً مُحَرِّراً...

كان ذلك في الزمن الأول، إلا أن هذا الزمن قد وَلَّى وانقضى، حين انصَرَفْنا عن دِينِنا، وسَقَطْنا فيما سقط فيه سِوَانَا: **«حُبُّ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَةُ الْمَوت»** فالإنسان في جَوْهَره كما أُنِفَ واحد...

ثم كان **(زَمَنٌ ثَانٍ)**: الزمن الذي أَسَّسْنَا فيه حَضَارَتَنا على رَكَائِزِ الزَّمن الأوّل، فازْدَهَرَتْ

بِبركاته، وَبِقَدْرِ ما أَخَذْنَا فيه بِتَوْجِيهَاتِه، وإنْ دَاخَلَنَا فيه شيء من الدُّنيَا، فكانت **ثَوْرَةُ الخَوَارِج** في العَصْر **الأُمَوِيّ**، وكانت ثورة **الزِّنْج** في العصر **العَبَّاسِيّ**، وكانت فيه مَعَالِمُنَا تَدُلُّ عَلَيْنا مِن (**حَضَارَة عَبَّاسِيَّة**) دَوَّخَتْ الدُّنيَا، إلى (**حَضَارة أَنْدَلُسِيَّة**) أَذْهَلَتْها.

كان هذا الزَّمَنُ بالنِّسْبَة للغَرْب زَمَنَ البَهْت والتَّعَلُّم، زَمَنَ الدَّهَشِ والذُّهُولِ، لم يَكَدْ يرى مِنّا فيه سِوَى قُصُور (**أَلْف لَيلَة وَلَيلَة**) السِّحْرِيَّة...

جاء بعده (**زمن ثالث**): هو هذا الذي نَعِيشُه اليَوْم منذ ثلاثة قُرُون أو أكثر، زمن تَدَهْوُر خِلاَفَتِنَا، وظهور دُوَيْلاَتِنَا، زمن الْحُرُوب الصَّلِيبِيَّة وَشَنَآنِهَا...

هذا هو الزّمن الذي ما زلنا نَعيش، فَلَئِنْ اكْتَفَى مَاضِيهِ البَعِيد بِحَمَلاَتِهِ العَسْكَرِيّة ضِدَّنا، فقد انْضَافَت إليه في حَاضِرِه القَرِيب حَمَلاَت إِعْلاَمِيَّة تَنْقُدُنا...

والجَدِير بالملاحَظَة، أنَّ نَظْرَة الغَرْب **للمرأة**

المسلمة قد مَرَّتْ بِهَذِهِ المراحل نفسها: فَمَنْ نَظَر إلى امرأة حَصَان مُتَعَفِّفَةٍ لا يُشَقُّ لَهَا غُبَار، فإن فُعِلَ فَالْوَيْلِ الوَيْلِ لِبَنِي قَيْنُقَاع ومَنْ لَفَّ لَفَّهُم، إلى امرأة سَاحِرَة خَلاَّبَة، هي إلى شَهْرَزَاد أَقْرَب منها إلى وَلاَّدَة، إلى امرأة جَارِيَة مَتَاع رُخَص وشيء يُكْتَسَب فِي عَصْرِنا الحَالِي، فهل نحن بالفعل كذلك؟

نُرْجِيءُ الإِجَابَةَ عَنْ هذا السُّؤَال إلَى حِين، فَلَنَا اللَّحْظَةُ شَأْنٌ آخَر.

تَأَمَّلُ هذا **الزَّمَن الثالث** فيما يَهُمُّنا، والوُقُوف على أَسْبَابِه وخَفَايَاه.

الفصل الثاني

- ❑ الحروب الصليبية.
- ❑ التبشير.
- ❑ الاستشراق.

الحُرُوبُ الصَّلِيبيَّة

كانت هذه المواجهة من خلال **(حروب صليبية)** مَكْشُوفَة الوَجْه، صَرِيحة البَاطن، أَوّل من دعا لها: (بُطْرُس النَّاسِك: Pierre l'Ermite)، مُطَالِباً بِحِمَايَة **(البِقَاع المُقَدَّسة)**، وتَبَنَّت البَابَاوِية دَعْوَتَه، وبدأت الحَمَلاَت في سنة **(٤٩٢هـ/١٠٩٧م)**، فاسْتَوْلَى (جودفروا دي بويون: Godefroy De Bouillon) على كثير من مُدُن الشَّام وثُغُورِه، وأنشأ بها الصَّلِيبِيون مملكة لاَتِينية.

ثم توالت **الحملات** على الشام ومصر حتى سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، واستَمرَّت مائة وسبعين عاماً، حتى سيطرت على عَكَّا، وطَرطُوس، وأَنْطَاكِية، وحَلَب، وَأَقَامَت أربع إمَارَات لاَتِينيَّة بِبَيْت المَقْدِس، وطَرَابُلُس، وَبأَنْطَاكِية، وبِالرُّهَا.

ثم بدأت مُحَاوَلاَتُ رَدِّ الفِعْلِ مِنَ المسلمين، والدِّفَاعِ عن أراضِيهِم ودِينهم مع عِمَاد الدِّين زِنْكِي ونور الدين زِنْكِي سُلطَان الْمَوْصِل، فَصَلاَحُ الدِّين الأَيُوبِي الذي حقق انتصارات ضخمة، فاحتل طَبَرية في سنة ١١٨٧م، وانتصر في معركة حِطّين، وأَسَرَ (لوسينيان مَلِكَ أُورْشَلِيم: Lusignan Roi de Jerusalem)، ورَفِيقَةُ الْمَلِكَ رَاجِيًا.

ثم أطلقهما صلاحُ الدين، فَخَانَه الأخير، فتمكّن منه صلاحُ الدين وقتله، وحرّر أغلب مدن سوريا وفلسطين، إلا أنطاكية وطرابلس وَصُور وبعضَ القُرى.

وفي إثرها قامت **(الحملة الصليبية الثالثة)** بقيادة إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا وإنجلترا: (فريديريك بربروسا: Frédéric Barberousse)، و(فيليب أغسطس: Philippe Auguste)، و(رتشارد قلب الأسد: Richard Cœur de Lion)، فهاجموا عَكَّا وحاصروها سنتَيْن، حتى سقطت في أيديهم فَأَسَرُوا ألفين وسبعمائة مسلم.

وبعد مفاوضات ـ اتُّفِقَ فيها أن يكون لهم بها الساحل، وللمسلمين الداخل ـ أَطْلَقُوا سراحهم، ومات صلاح الدين بعد أشهر قلائل.

ثم اتجهت (الْحَمَلاَتَ الصّليبية) إلى مصر مرتين:

ـ (الأولى): بقيادة (جان دي برين: Jean De Brun) ملك بيت المَقْدِس، في مائتي رجل، فهاجَموا دِمياط، ونَفَذُوا منها إلى القاهرة، فَقَطَعَ الْمَلِكُ الكَامل كل جُسُور التُّرَعِ التي تُحِيطُ بالصليبيين فانهزموا.

ـ (الثانية): بقيادة (لويس التاسع: Louis IX) الذي لحق بدمياط، ثم انقطعت عنه الإمدادات، وتَفشَّى في جيشه الوباء، فانهزم.

وخَلَفَ (الملكُ الظّاهِرُ بِيبَرْس: Roi Baybars) صلاحَ الدين، فاسْتَرَدَّ الكَرْك، وقَيْسَارِيَة، وإنطاكية، وحِصْنَ الأكراد، وتابعه السلطان (قَلاَوُون: Qalawoun) فاسترجع حِضْن المرقب قرب طرابلس،

ثم حَرَّر الْمَلِكُ الأَشرف عكًّا بعد حِصَار شَهْر، فصُور، وَصَيْدا، وبَيْرُوت، وطَرْطُوس.

ثم ساق (لويس التاسع عشر: Louis XIX) (**حملات صليبية**) أخرى على تونس، فأذهبها الطاعونُ وفَشِلَت.

وقد توقفت هذه (**الحملات الصليبية العسكرية**) السَّافِرَةُ الوَجْه في سنة (٦٤٩هـ/١٢٥١م).

ثم تجددت في **الأندلس**، واستمرت أكثر من (**أربعة قرون**)؛ اتَّحَدَتْ فيها الدُّوَيْلاَتُ المسيحية في شبه الجزيرة، وأهمها: قشتالة، ونفارة، وأربونة، والبرتغال.

فهاجمت **الدولةَ الإسلاميةَ**، واستولت على قُـرْطُـبَـة سـنـة (٦٥٨هـ/١٥٥١م)، وازداد اتـحـادُ الأوروبيين وراء هذه الحملة التي كانت تُمدُّ بالعتاد والرجال، فسقطت بَلَنْسِيَة في سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، فَمُرْسِيَة في سنة (٦٤١هـ/١٢٤٤م)، فإِشْبِيلِيَة في سنة (١٠٥٧هـ/١٦٤٧م).

وقد كان اتحاد مملكة قَشْتَالَة وأَرَجُون بزواج مَلِكَيْهِمَا (إِزَبِيلاً: Isabelle) و(فِرْدِينَانْد الخامس: Ferdinand V)، وتَصَاهُرِهِمَا الضَّرْبَةَ القَاضِيَةَ على الدولة الإسلامية هناك.

ولم يأت عام (٨٩٢هـ/١٤٨٦م) حتى سقطت غِرْنَاطَة في أيديهما، بعد أن حاصرها خمسون ألف نصراني؛ ثم نَصَبَ الصَّلِيبَ الفِضِّيَ فوق بُرْج الحَمْرَاء، وأُجْبِرَ أبو عبدالله ـ آخرُ الخلفاء المسلمين هناك ـ على تسليم مفاتيح غرناطة إلى فرديناند.

إثرها بَدَأَتْ **معركة الإبادة للمسلمين**، فبعد أن أَمَّنَهم فرديناند، عاد فَغَدَرَ بهم غَدْراً شَنِيعاً، فأجبرهم على **التَّنَصُّر، وجَمَعَ الْمَصَاحِف وذَخَائِرَ العلوم الإسلامية العربية في ساحة المدينة وأَضْرَمَ فيها النار**، وقد كان في **مكتبة قرطبة** وحدها **مِلْيُون** كتاب في مختلف العلوم.

ثم رَتَّبُوا **أَنْظِمَةً كَهْنُوتِيَّة** لمحاربة المسلمين، سمَّوْهَا: «**أنظمة فُرسَان الهيكل**» لِتَقْتِيلِ وَإِبَادَةِ كُلِّ

مُسْلِم، مما اضطَرَّ آلافَ المسلمين إلى الارْتِدَاد عن دينهم طمَعاً في النجاة، أو إلى الهجرة إلى شمال إفريقية.

أما الْمُتَبَقُّون منهم، فقد استحالوا إلى جماعة «الْمُورِسْكِيِّين»، أي: العرب الْمُتَنَصِّرِين، إلا أنّ هؤلاء لم يَنْجُوا من التَّقْتيل أيضاً، فقد أُبِيدوا في عهد (فيليب الثاني: Philippe II).

وفي عام (٩٥٩هـ/١٥٥١م) صدر قرار مَلَكِي يَقْضي بكل مَنْ تُشْتَمُّ منه رائحة الإسلام في قَشْتَالَة وَلِيُون أن يُجْلَى من البلاد، وكذلك فَعَل (فيليب الثالث: Philippe III) في سنة (١٠١٨هـ/١٦٠٩م) نفس الفعل، فامتنعت طائفة من المسلمين الْمُتَحَصِّنِين بجبال البشرات ذات المعاقل الثَّلجية، وظلُّوا محاصَرين سنوات عديدة، صابرين مجاهدين، حتى انطلق (الدُّوقُ جُون: Duc John) سنة (٩٧٨هـ/١٥٧٠م) في عَمَلِيَّة حَرْقٍ وإِبَادَة تَامَّة، وقَطَعِ الذَّخائِر عنهم، فكان يدخل القُرَى المشكوك فيها، فَيُحْرِقُهَا

كاملة بأهليها جَمِيعِهِم، ويَتَتَبَّعهم في الكُهُوف والأغوَار، حتى بلغ من **قتلَى المسلمين في سنة (١٠١٩هـ /١٦١٠م) ثلاثة ملايين مسلم**.

وقد قَتَلَ **الراهبُ ميلادا** وحده في سنة (١٠١٩هـ /١٦١٠م) مائةَ ألف مهاجر مسلم من الأندلس، كانوا مهاجرين في قافلة واحدة مكونة من ١٤٠ ألف مهاجر.

كما بنى النصارى **الكنيسة** الجامعة **في قلب مسجد قرطبة**، ووضعوا في المحراب صورة (القِدِّيس فرديناند: Saint Ferdinand) ـ وسط دائرة من الذهب ـ وهو على ظهر فرسه، وأمامه ملكُ العَرَب يُقَدِّمُ له مفاتيحَ المدينة.

وهكذا **قُضِيَ على الإسلام في أوروبا الغربية**، ثُمَّ شُرِعَ في محاربته في أوروبا الشرقية بدعوة (**البابا بيوس الخامس**: Pape Pie V) في أواخر القرن السادس عشر: دعا إلى **حِلْفٍ** يَضُمُّ مَلِكَ إسبانيا، وجمهورية البندقية، فأعلنت (**الحرب المقدسة**)

لاِسْتِرْداد جميع الأقطار المسيحية، والمقاطعات الأوروبية من الخلافة العثمانية.

وفِعْلاً تَمَّ لهم ذلك، **فأُخرِجَ الإسلام نِهَائِيًا من أوروبا.**

ثم جاء (اللورد اللنبي: Lord Allenby) في سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) ليقول في بيت المقدس كلمته الشهيرة: «**اليوم انتهت الحروب الصليبية**»؛ ومعنى ذلك: أن هذه الحملات آخِذَةٌ بعضُها بِرِقَاب بعض.

التبشير

هو حمل المسلمين على الارتداد والتَّحَوُّل من الإسلام إلى المسيحية، وقد انعقد في عام (٧١١هـ/١٣١١م) مؤتمر (فِيِينَّا : Vienne) برئاسة (البابا كليمان الخامس : Pape Clement V)، تَقَرَّرَ فِيهِ **تَأْسِيسُ مَدَارِسَ خاصة** في بَرْلِين وَبُولُونْيَا وآكسْفُورد وسَلَمَنْكَة تُدرِّس العربية والعبرانية والكُلدانية، لِتَخريج وُعَّاظ يَسْتَطِيعون تَنْصِيرَ الْمُسْلِمِين، أو على الأقل تَشْكِيكُهُم في دينهم.

وبدأ القساوسةُ يُتَرْجِمُونَ **القرآن الكريم** مُحَرِّفِين الْمَعْنَى، وبدأت الكِتَابَات في **حياة الرَّسول ﷺ** وسيرته تَظْهَرُ، مُعْتَمِدَةَ الرِّوَايَات الضَّعيفة وَالْمَشكوك فيها أساساً، لِرَسْمِ صُورة بعيدةَ عن الواقع لِسَيِّدِ الخَلق أجْمَعِين.

وبدأت الشُّبُهاتُ تُثَارُ حولَ **التَاريخ الإسلامي**، **والشريعة السمحاء**، وقد قام على هذه الأعمال، أعلام لهم قَدَمُ ثَبْتٍ - كُلٌّ في مجاله - من أمثال: (فُولْتير: Voltaire)، و(رينان: Renan)، و(لاَمَنس: Lammens)، و(زويمر: Zweimer).

وبدأت أعمال هؤلاء تُنْشَرُ دَاخِلَ الْمُجْتَمع الإسلامي نفسِهِ، تَحْتَ لِوَاءِ الحُرِّيِّةِ الفِكْرية، وإطلاق العَنان لكل مُفَكِّر، وبَاحِث.

أمّا الكنيسة؛ فقد بدأت عملَها في عام (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) بعد أن أقره البَابَاوَات، ورسَمُوا خُطَّتَه، ووضعت له الدُّوَل «**مِيزانيات ضَخْمة**»، فاتَّجه هذا التبشير السَّيِّئ أوَّل ما اتجه إلى **لُبنان**، حيث العربُ النصارى، **فمِصْر** قَريبَتُها جُغْرافياً، وكما أخذ التبشير سِلاحَ المدارس - **أساساً** - لِعَمَلِهِ، مُسْتَغِلاً جهْلَ الشَّعْب وفَقْرَه، فقد اعتمد أيضاً على سِلاحَ آخر: سِلاح بناء المستشفيات، ودُور الصحة.

وإذاً؛ ليس من المنطقي أن تَنْشَأ المعاهد،

والمستشفيات، والأندية، ومؤسسات البر والإحسان، في ظل الاعتمادات الضَّخْمَة، وأن تُنْفَق عليها الأموال الطائلة دون غَرض أو غاية مُبَيَّتة، أو لمجرد الإحسان للمسلمين ـ **(أعداء الأمس في الحروب الصليبية)** ـ فإنَّنا نُثْبِتُ أنَّ ذلك كان لجعل المبشرين عُيُوناً علينا، ومَنَافِذَ لإثارة الشُّبُهات، والقَلاَقِل، والفتن؛ ولِنَشْرِ رُوحِ العَدَاء، والتَّخَاصُم بين الفِرَق، للإضعاف وتَمْكِين دُوَلِهِمْ المُنْفِقَة عليهم، من التَّدَخُّلِ في شُؤُونِنَا، والدُّخُول إلى بُلْدَاننا.

يَعْتَرِف بذلك **(زويمر** : Zweimer) قائلاً ـ في تقريره المنشور في ١٢ أبريل ١٩٢٦م ـ: «لقد جَرَّبْتُ الدَّعْوَةَ إلى **النَّصْرَانية** في أنحاء كثيرة من الوطن الإسلامي، وإنَّ تَجَارِبي تُخَوِّلُني أن أُعْلِنَ: أنَّ الطريقة التي سِرْنَا عَلَيْهَا لاَ تُوصِلُنَا إلى الغاية التي نَنْشُدُها، فقد صَرَفْنَا من الوقت شيئاً كثيراً، وأَنْفَقْنَا من الذَّهَبِ قَنَاطِيرَ مُقَنْطَرَة، وأَلَّفْنَا ما استطعنا أن نُؤَلِّفَ، وخَطَبْنا؛ ومع ذلك لم نَنْقُلْ من الإسلام إلى النَّصرانية إلاَّ عاشِقاً بَنَى دِينَه الجَدِيدَ على أساسِ

الْهَوَى؛ فالَّذِي نُحاوله في نَقْلِ الْمُسلمين إلى النَّصرانية، هو اللَّعب أَشْبَهُ مِنه بالجِدّ.

وعِنْدي، أنه قَبْلَ أن نَبْنِيَ النَّصْرانية في قلوب المسلمين، أن **نَهْدِمَ الإسلامَ** في نُفُوسِهِم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين، سَهُلَ علينا أو على من يأتي بعدنا، أن يَبْنُوا النَّصرانيةَ في نُفُوسِهِم.

إنَّ عملية الهدْمِ، أَسْهَلُ من عملية البناء في كل شيء، إلا في موضوعنا هذا، لأنّ هَدْمَ **الإسلام** في نَفْسِ المسلم، معناه: **هَدْم الدِّينِ على العموم**». اهـ.

هكذا كان **التَّبْشِير**: دعوةً صريحةً إلى النَّصْرانية، وإنْ اعْتَمَدَ من وَسَائِلِه: تَأْسِيسُ المدارس والْمُسْتَشْفَيَات، يقَدِّمُ فيها للمسلمين خدمات؛ وبتغيُّر العصر، واتِّضَاحِ النِّيَّات، اتخذ التَّبْشِير وَجْهاً آخر: وجهاً أكثر خَفاءاً وتَقَنُّعاً، تَمَثَّلَ في الإقبال على **الدراسات العربية الإسلامية**، قَصْدَ مُجَرَّدِ الاطلاع، وحُبًّا فيها في الظَّاهر، **لِغَايَة التَّأليف** فيها في مرحلة

ثانية، تأليفاً يَبُثُّ الشُكُوك فيها، ويُحَاوِل نَخْرَها من الدّاخل.

فإن كان «المُبَشِّرُ» يَأتِيكَ جَهْرَةً بِنَفْسٍ اسْتِعْلائِيَّة، شاهراً الصَّليبَ في وَجْهِكَ، فإن «المُسْتَشْرِق» يأتيك مُتَخَفِّياً على اسْتِحْيَاء، مُتَظَاهِراً أنَّه يتعلّم بين يَدَيْكَ، فإذا تَمَّ له العلم، انْقَلَبَ مُعَلِّماً مُوَجِّهاً، لأبناء أُمَّتِكَ وسواهم.

لكن، ما هو الاستشراق؟

الاستشراق

الاسْتِشْرَاقُ مُصْطَلَحٌ يُطْلَق عى اتِّجاهٍ فكْريّ، يُعْنَى بدراسة «**الحياة الحضارية**» للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسات «**حضارة الإسلام**» والعرب بصفة خاصة.

أما عن بدايات «**الحملة الاستشراقية**» الصريحة، فقد اختلف المؤرخون فيها:

- فمنهم من أعادها إلى تاريخ دخول المسلمين إسبانيا أصلاً، وإلى جنوب إيطاليا وصقلية في العصور الوسطى، إذْ عَكَف سُكَّان هذه البلدان إلى الاهتمام بشأن المسلمين ولغتهم، كما يرى ذلك الباحث الدكتور عبد الجليل شَلَبِي في كتابه: **(الإسلام والمستشرقون)**.

- ومنهم من يرى أن **الاستشراق** بدأ في القرن الثالثَ عشرَ الميلادي.

- ومنهم مَنْ أرجعها إلى بداية **الحروب الصليبية**، أو إلى بداية عصور النهضة الغربية، أو إلى حملة بونابرت على مصر في عام (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م).

أما الرأي الذي نذهب إليه، فهو أن انطلاقة **الاستشراق** كانت مع **الحروب الصليبية**، وخاصة مع حَمَلاَتِ القرن الثاني عشر، اعتماداً على قولِ [المستشرق] (روي بارت: Roi Barth) في كتابه: **(الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية)**.

إن بداية الدراسات العربية الإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر، ففي عام (٥٣٨هـ /١١٤٣م) تمت ترجمة معاني القرآن [الكريم] لأول مرة إلى اللّغة اللاّتينية بتوجيه من الأب بيروس فينيرا بيليس رئيس دير كَلُوني، وكان ذلك على أرض إسبانيا.

وفي القرن الثالثَ عشَر أيضاً؛ نُشِرَ أوّلُ قاموس لاتيني عربي.

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر؛ بذل رايموندوس لاّلوس جهوداً كبيرة لإنشاء كَرَاسِيَ لتدريس اللّغة العربية، وكان قد تعلّمها على يد رجل عربي.

وكان الهدف من هذه الجهود: هو **التبشير**، وإِقْنَاع المسلمين بِلُغَتِهِمْ بِبُطْلاَن الإسلام، واجْتِذَابِهم إلى الدين المسيحي؛ مِنْ هنا نُدْرِك، **مَدَارَات اهْتِمَام المستشرقين وغاياتهم**.

ولقد كان **الاستشراق** في بدايته مُقْتَصِراً على دراسة الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها؛ ثم اتَّسَعَ نِطَاقُهُ إلى دراسة الشرق كله: لغاته وأديانه، وآدابه ومجتمعاته[١].

ويُصَرِّحُ العلاّمةُ الشَّيخ السّيد محمد عَلَوِي

(١) محمد علوي المالكي «موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية ص٦، ٢٧.

المَالِكِي في كتابه: **(موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية)** بأنّ أهمّ ما اعْتَنَى به المستشرقون في دراساتهم هو: **«الدين الإسلامي»** و**«اللغة العربية»**، لأنّ ذلك مَثَار اهتمامات **المستشرقين** الأول والكبير، والذي يُمَثِّلُ النزاع الفكري، والسياسي، والعقائدي، الذي يَسُودُ عَصْرَنَا الحَالِي.

ويزيد د. عدنان محمد وَزَّان في كتابه: **(الاستشراق والمستشرقون: وِجْهَةُ نَظَر/ ص١٥)**، قائلاً: «إن الدراسات الاستشراقية التي تُعنَى بدراسة الحضارة الإسلامية، واللغة العربية، إنما هي وحي من تقاليد مَوْرُوثَة لدى الفَرَنجَة والغربيين، وهي امتدادٌ للحروب الصليبية».

ولولاه فما الداعي لرصد الحكومات كل هذه الأموال والاعتمادات الضخمة، لمساندته وحمل الباحثين والمفكرين على وُلُوجِ أبوابه؟

«إن مثل هذا الاهتمام البالغ بالدراسات الاستشراقية من قِبَلِ الحكومات والمجالس النيابية،

والأوساط الكَنَسِيَّة، يُعْتَبَر مُؤَشِّراً هَامًّا لِمَا يهدف إليه **الاستشراق**، وما يُمَثِّلُه مِنْ خُطُورَة»[1] اهـ.

أما صلة **الاستشراق** بالاستعمار، فهي غَيرُ خافية، فقد كانت البعثات العلمية في صحراء سَيْنَاء وجزيرة العرب قبل **الحرب العالمية الأولى**، مُقَدِّمَةً للغزو الذي قاده (لُورَانْس: Sawrence/ Laurence) الذي كان يُدَرِّسُ عِلْمَ الآثار مِنْ قَبْلُ في هذه البعثات العلمية.

وقد أجمل الدكتور مصطفى السباعي[2] (صفات المستشرقين) عامة، في كتابه: (**السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**/ ص١٨٨) ما خلاصته:

ـ سُوءُ الظنّ بكل ما يتصل بالإسلام وأهدافه.

ـ سوء الظن برجال الإسلام وعلمائه جميعهم.

---

(١) «موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية».

(٢) «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١٨٨».

- تصوير المجتمع الإسلامي في صورة مُجْتَمَع متفَكِّك، تقتله الأنانية المُقِيتَة، وحُبّ الذات.

- التقليل من شأن الحضارة الإسلامية في كل آثارها.

- الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي، وقياسه على ما يعرفون في مجتمعاتهم الخاصة.

- إخضاع النصوص للفكرة التي منها ينطلقون، وعنها يدافعون، وإليها يهدفون.

- تحريف النصوص، إنْ عَمْداً أو لِسُوء فَهْم.

- اعتمادُ ما هَبَّ ودَبَّ مما كَتَبَهُ العرب؛ فَمَثَلاً: يستشهدون بكُتُب الأدَب لإثْبَاتِ حُكْم يتعلّق بأحَد الصَّحابة مثلاً، أو يعتمدون على قِصَّةٍ (ألف ليلة وليلة)، لتصوير واقع الإسلام الاجتماعي. اهـ.

ولَيْتَ شِعْري، كيف جَوَّزُوا لأنفسهم ذلك؟ ففعلوا ما يفعله متعلم اللغة العربية مثلاً، من اعتماده مَرْجِعاً في التشريع يتعلم منه الفقه، أو النحو، أو الأدب.

وقد كان من هؤلاء المستشرقين:

١ ـ (فُولْتير: Voltaire)، رائد حُرِّيَّة الفكر في الغرب. كتب مسرحيته: (التَّعَصّب أو النبيّ محمد). وقد كان معروفاً بحرية الفكر، والدعوة إليها حثيثاً، لكنه ينساها مطلقاً ويتخلى عنها التَّخَلِّيَ كُلَّه عندما يكتب عن الرسول الأعظم ﷺ في عام ١٧٤٢م، ويُهْدِي مَسْرَحِيَّتَه إلى البابا (بُنُوَا الرابع: Benoît IV)، فَيَشْحَنُهَا بحوادث مُفْتَعَلَة، وشَخْصِيَّات خَيَالِيَّة، يَدَّعِي وُجُودَهَا، ولا يتحرّز من الوقوع في أخطاء كبرى، يتجنبها كُلُّ مَنْ لهُ أدْنَى معرفة بالإسلام.

فَمَثَلاً: يجعل الزُّبَيْرَ بن العوام سَيِّداً من سادات قريش، مُعَادِياً للرسول ﷺ.

ومِنْ أخطائه التي تَفْضَح دَخِيلَةَ نَفْسِه، ومُحَاوَلَةَ التَّمَلُّقِ للْكَنِيسَة، إذ يقول:

«إلى رئيس الديانة الحقيقة، ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية، أضع عند موطئ قدميك، الكتاب ومؤلفه. إن صاحب القداسة سيغفر ولا

شك، الجرأة التي يأخذ أسبابها أحد المؤمنين المتواضعين، في أنْ يَهْدِيَ حبر أحبار الكنيسة الكاثوليكية الحقة هذه المسرحية».

وبعد أن حمل على الكنيسة ذاتها، مُحَاولاً هذه المرة اسْتِرْضَاءَهَا إلى التَّهَجُّم على الرسول محمد ﷺ.

ثم عاد بعد سنوات ليقول: «لقد نَسَبْنَا إلى الإسلام كثيراً من السَّخَافَات[1]، وهو في الحقيقة خِلْوٌ منها، ولَكِنَّ كَهَنَتَنَا كتبوا كُتُباً كثيرة في ذَمِّ الأَتْرَاك، واتُّفِقَ أنْ كَانَ الأَتْرَاكُ مسلمين فأصيب على حساب غيره».

٢ ـ **(الأب لاَمَنْس: Lammens)** اليسوعي: كَانَ مُتَعَصِّباً جِدًّا، وهو صاحب كتاب: **(فاطمة وبنات محمد)**؛ وهو الذي جعل السيّدة عائشة أمّ المؤمنين مَخطِئَةَ الرَّسُول ﷺ.

(١) صحيفة المؤيد ١٩ مارس ١٩٠٨.

وقد رد عليه من بني قومه: (بِيكر: Becker)، و(دِيُمومْبِين: Demombine)، و(ماسيه: Macé)، وفتيت قائلاً في جَلْسَةٍ بتاريخ (١٠ مايو ١٩٣٧م) لأعضاء المجلس العلمي المصري: «من الصّعب أن نقْبَلَ كتاب: **(فاطمة وبنات محمد)** في ثقة ودون تَحَفُّظ، وإنّ التّعصب والاتجاه العَدَائِي، يَسُودَانِه إلى حَدٍّ كبير».

ولاَمَنْس هذا، هو الذي لا يُخْفِي تَشَفِّيَه من **(سقوط الخلافة العثمانية)** في مختلف أبحاثه، وقَدْ تَتَبَّعَ كتاباته د.زكي محمد مُحْسِن، وقد وصَف **لاَمَنْس** - من بين المؤرِّخين الأوروبيين - بأنه المُتَحَزِّبُ الذي تُؤْخَذُ أقواله بِتَحَرُّزٍ شديد، حتى من الغَرْبِيِّين أنفسهم، (على معتبر محمد كرد علي).

٣ - (الدوق دَارْكُور: Duc D'Harcourt) [وَكِتَابُهُ]: **(مصر والمصريين)** - وقد رَدَّ عليه **قَاسِم أَمِين** بالفَرَنْسِية - القائل: «إن السِّرَّ في تأخر الفكر المصْري يرجع إلى الإسلام... ذلك أنه لاَ يحث

على البَحْث في العلوم غير الدينية».

٤ ـ **(سينوبنس)**: مؤرخ فرنسي، وهو يقول: «إنَّ الرسول كان رجلاً مريضاً، سوداويّ المزاج، تنتابه عوارض حُمَّى، ونوبات عصبية، فَتَخْتَلِطُ عليه الأمور».

٥ ـ أما **(دوزي**: Dozy)؛ فلم يجد أفضل من الادّعاء بأنّ أسلوب النص القرآني أسلوب ركيك... آية في الركاكة أحياناً...

٦ ـ **(الكاردينال لاَفِيجري)** وكتابه: **(الرق في الإسلام)**، وقد رَد عليه الأستاذ **أحمد شفيق باشا**.

٧ ـ **(مارجوليوث**: G.Margolioth) ومقاله: **(مستقبل الإسلام)**، والذي يَدّعي فيه أنَّ بداية الإسلام كانت جَمْعِيَّةً سِرِّيَّة، شأنها شأن الماسونية، وأنها نشأت بدار الأرقم، وكانت كلمةُ السِّرِّ فيها أو شِعَارُهَا:

«**السلام عليكم**».

٨ ـ (لويس برتران: Louis Bertrand) في كتابه: «**أمام الإسلام**»، يقول: «إنّ المسلمين متأخرين وقذرين... ولا شرف لهم. وغير قابلين للتَّمَدُّن أَصْلاً إلاً بِوَاسِطَةِ... واسطة الغَرْب الحامل لواءه».

٩ ـ (أرنست رينان: Ernest Renan) الذي حمل على الأديان كلها وعلى المسيحية بالذّات... فهو الذي يدّعي أن السامِيِّين ليس من فطرتهم: الفلسفة، والتَّفكير، والسياسة، والتدبير، والحرب، والتنظيم... وكان يرى أن الرسول رجلاً مُخَادِعاً مُحْتَالاً، وأَرْجَعَ نُشُوء **الدولة الإسلامية** إلى الرَّجُل العبقري: **عمر بن الخطاب**... وهو يُمَثِّلُ بِالنِّسْبَةِ للإسلام، ما يُمَثِّلُهُ (القِدِّيسُ بُولُس: Pape Paul) في المسيحية...

١٠ ـ (د. واطسون: Dr. Watson) مدير الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٣م، كتب في (مجلة السياسة الأسبوعية) ليوم ١٠ يوليه ١٩٣٣م، قائلاً: «إن في القرآن، وفي دراسة التاريخ الإسلامي الخطر

الداهم، والخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير المسيحية».

وهناك مقالات عدة في (**دائرة المعارف الإسلامية**) من كتابات: **فنسنك**: (Wensinck)، **ومرجوليوث**، **ولامنس**، و(**كراتشكوفسكي**: (Kratchkovski)، **وهوار**، و(**هانونو**: (Hanono).

وإذ لم يعتمد هؤلاء **المستشرقون** مبدأ علمياً صحيحاً فيما يكتبونه أو يتحدثون به، فقد كان طبيعياً أن يأخذوا شُعَباً عِدَّة، فما يقوله (نُولدكه: (Nöldeke) في (**الوحي المحمدي**)، يُكَذِّبُهُ (دِي خويه: (De Hui) في (**مباحث شرقية**/ ج١ ص٥/١)؛ ثم يَهْدِمِ (**سبرنجر**: (Sprinjr) هَذَيْن الزَّعْمَيْن في كتابه: (**محمد وعَمَلُهُ**)؛ ثم يُنَاقِضُهُمْ جَمِيعاً **سنوك هاجرونجه** في مجلة (**تاريخ الأديان**).

وعن أخْطَائِهِم، كَتَبَ الْمُصْلِحِ الأستاذ **محمد كُرْد علي** مَقَالاً [بعنوان]: (**أغلاط الإفرنج**)، نُشِرَ بمجلة (**المجمع العلمي العربي**) في دمشق.

وَقَد تَصَدَّى علماء الإسلام إلى هذه الطَّعَنَات والْمُخَاتَلاَت الفِكْرِيَّة، فكان منهم: **محمد عبده، ورشيد رضا** في مجلة (المنار)، **ومُحِبّ الدين الخطيب** في مجلة (الفتح)، **وفريد وجدي، وعلي يوسف، ومصطفى الغلاييني، وعبدالقادر المغربي، ود. هيكل**.

وعشرات آخرون من أبرز الكُتَّاب الأحرار.

ومن الصُّحُفِ السَّائرة [آنذاك]: **(المؤيد)**، و**(البلاغ)**، و**(كوكب الشرق)**، و**(السلسلة اليومية)**.

وهكذا نُدرك فِعْلاً، أنّ الْخُطُورة الأُولَى لهذه الحملة وهذه الكتابات، تتمثّل في **تشويه الإسلام**، ومُحَاوَلَة الْحَطّ من حَضَارَتِهِ، كما نرى تمثيلاً لا حَصْراً في الموسوعة التي تُصْدِرُها منظمة (اليونسكو: Unesco): «History of mankind cultural and scientific development»

مما يُنْشَر في أنحاء العالم، مما يُنَفِّر غير المسلمين من الإسلام، فيَنْصِبُون له العداء عن جهل وتغرير،

فَلَمْ تَعُدْ كلماتٌ هُجُومِيَّة تُلْقَى أو تُذَاعُ، بل أصبحت نُصُوصاً في (**دَوَائِرِ المعارف**)، ومصادر الدراسات في الجامعات والمدارس، مبثوثة في المراجع الأساسية التي يلجأ إليها الأساتذة والباحثون في العالم الإسلامي، فتجري على أقلامهم دون انتباه لما تَحْوِيه من دَسَائِس.

هذا، ويليه **الخطر الثاني**، الْمُنْجَرُّ عَنْهَا، وهو زَعْزَعَةُ ثِقَةِ المسلمين في دينهم، ولغتهم، وحضارتهم.

وقد كان أول المستشرقين من الرهبان والقَسَسَ والمبشرين، يُسَاهِمُون في تذليل الصعوبات أمام الاستعمار، وتسهيل مُهِمَّتِهِ في القضاء على الإسلام، بِطُرُقِ التَّجَسُّسِ، والْمُؤَامَرَاتِ التخريبية.

فليس **الاستشراق** مَنهجاً أَكَادِيمِياً، بل هو ـ قبل هذا وذاك ـ خُطَّة سياسية، وموقف تاريخي، يُعنَى بـ(**الشرق والإسلام**).

بِهذا جاز لنا أن نربط ما بين «**الاستشراق**»

وبين «التبشير»، وبهذا ترى أن عمل **التبشير** يَصُبُّ في قناة **الاستشراق**، وأنهما عُمْلة واحدة، وإنِ اتَّخذَا سُلُوكَيْن مُخْتلِفين، أو قُل: هناك ظاهر، وهناك باطن.

ترجمات [مَعَانِي] القرآن الكريم: جاء في تقريرٍ نُشِرَ بِـ(**مجلة الهلال**) خلال الحرب العالمية الثانية، أَنَّ ترجمات [مَعَانِي] القرآن بلغت (**٩٥**) ترجمة، إلى مختلف لغات العالَم:

- **الإنجليزية**: (عَشْرُ ترجمات، بدأت منذ عام **١٦٤٩**م).

- **الفرنسية**: (سبع ترجمات، بدأت منذ عام **١٩٤٧**م).

- **الألمانية**: (ثلاث عَشْرَةَ ترجمة، بدأت منذ عام **١٦١٦**م).

وأيضاً: - اليونانية، اللاتينية، البولونية، الإيطالية، البرتغالية، الإسبانية، الصربية، الهولندية، الألبانية، العبرية، الهندوكية، الدانماركية، الأرمنية،

البرغالية، البنغالية، الرومانية، المجرية، اليابانية، البوهيمية، الصينية، السويدية، الأفغانية، البنجابية، السواحلية، السندية، الجاوية، الهوجدانية...

وأن أول ترجمة له قام بها [هو] روبرت الراتيني بمساعدة هرمان الدعاطي في [عام] **١١٤٣م**، وبقيت محفوظة نَيِّفاً وأربعمائة سنة، حتى طبعها تيودور بيلياندر في باسل عام **١٥٤٣م**[١].

وطبيعيّ أن يكون أوَّل مَنفَذ حاول التَّسَلُّل منه **المستشرقون**، هو مَنْفَذُ القرآن الكريم، ورسالة الرسول الأكرم، فذهبوا فيهما شِيَعاً وأحْزَاباً:

فمنهم من لم يعترف للرسول بأُمِّيَّتِهِ، وجعله عالِماً استقطب علوم عصره ومعتقداته، وصاغها في نص شِعْرِيٍّ فصيح، فأخذ في تشريعه عن الجاهلية: صلاة الجمعة، وصوم عاشوراء، وتَطْيِيب البيت

---

(١) للوقوف على موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، يراجع مقدمة كتاب د. محمد حميد الله: **(القرآن الكريم وترجمة معانيه)**.

الحرام، والحج والطواف والعمرة، ونظام الأشهر.

وأخذ عن الصَّابِئَة: الصلوات الخمس، والصلاة على الْمَيّت، وتحريم الْمَيْتة، ولحم الخنزير، وتحريم الزّواج من القريبات المحرمات.

وأخذ عن الْهِنْدية والفارسية: قصة المعراج، والجنة، والحور العين.

وأخذ عن اليهودية: قصة قابيل وهابيل، وقصة إبراهيم الخليل.

وأخذ عن النصرانية: قصة أهل الكهف، وقصة مريم العذراء[١].

ومنهم من ذهب إلى أنه ﷺ لازم بَحيرا؛ وقال آخر: بل لازم نَسْطُورًا مدة طويلة بالشام، فكان يأخذ عنه، وتأتيه أغرَاض مَرَضِيَّة، فَيَصُوغ ما تَعَلَّمَ منه شعراً، ثم يُخْرِجُهُ قرآناً.

---

(١) إبراهيم خليل أحمد: (الاستشراق والتبشير وصلتهم بالإمبريالية العالمية).

ومنهم من ذهب إلى أنه ﷺ أخذ عن أصحابه وزوجاته، مثل: سلمان الفارسي، وصُهَيْب الرُّومي، ومَارِيَة القِبْطِيَّة، كما زعم فيليب حِتِّي.

وأنّ الوحي لم يكن إلا نَوْبَات مَرَضِيَّة، وضرباً من الصَّرْع، ونوعاً من الْهِيسْتِيرِيا، أو نوبات عبقرية شعرية، استحوذت على عقول الصحابة السُّذَّج، فآمَنُوا بها، واقتنعوا بها خَتَلاً[1] ونقلوها إلى الناس، ولم يَنْجُ من شَرِّهَا وخِدَاعِها إلاَّ الأَلْمَعِيُّون الأَذْكِيَاء، أمثال: أبي جهل، ومَنْ لَفَّ نَحْوَه.

ونحن إذا شئنا أن نُجْمِل **(الأفكار العامة)**، التي يَحْمِلُها الفِكْرُ الاستشراقي عامَّة، ونُؤَلِّف بينها، فإننا نقول: إنها كانت **ثلاث أفكار** جَوْهَرِيَّة، يَصُبُّ بعضها في بعض، وهي:

١ ـ إثْبَات بُطْلاَن الإسلام بصفته ديناً سماوياً، إنما هو قوة سياسية، قام على سفك الدماء والتقتيل

---

(١) خَتَلَ وخَاتَلَ؛ بِمَعْنَى: خَدَعَ. والتَّخَاتُلُ: التَّخَادُعُ. عن كتاب **(مختار الصحاح للرازي)**، مادّة (خَتَلَ).

والْمَجَازِر، وبهذا يُعَلِّلُون انْتِشَارَه، وإقْبَال الأُمَم عليه، بِخَشْيَتِها من شره، وخُضُوعها لسَيْفه. فالإسلام [في ظَنِّهم]: دين حرب وقتال، ولَيس هو مُطْلَقاً دِينُ سِلْم، أو حُرِّيَّة، أو لا إكراه في الدين.

٢ ـ إثْبَات عدم صِحَّة نُبُوَّةِ الرسول الأكرم ﷺ، فهو رجل مريض، به جِنَّة، لا أكثر.

٣ ـ مَسْخُ التَّارِيخ الإسلامي، والتراث العربي بأَكْمَلِه.

هذا، بالإضافة إلى بعض **الأهداف الجانبية الثانوية** الأخرى، كالقول بفوات زمن [اللغة] العربية، وأنها لم تَعُدْ تُمَاشِي العصر، بل أَنَّ بَعْثَ لُغَاتٍ قديمة مَيْتَة هو أَفْضَل مِنْ استعمالها.

وبهذا عَلَّلَ أَصْلاً د. عَدْنَان محمد وَزَّان: بَعْثَ شَامْبُوليون اللُّغَة **(الهيروغليفية)** مِنْ قَبْرِها، وحرصه على نشرها، لقطع صلة المصريين بالعرب، ورَبْطِها بالنزعة الفرعونية القومية.

وحَرِصَ كمال أتاتورك، ابن الاستشراق الأكبر

على استبدال **حروف العربية** في اللغة التُّركية بالحروف اللاَّتينية، وجعل **الأذَان** للصلاة بالتركية.

وبعث كل ما هو قَوْمِي أو فُولكلورِي في الشَّرَائِح الاجتماعية (العربية)، والدعوة إلى الإقبال على نَشْر **(اللهجات العامية)** المختلفة. وقديماً، قيل: فرِّق تَسُدْ، وإذا تَفَرَّقَت اللغات، تباعدت القلوب، وتنافرت.

فَرَبْطُ المسلمُ بـ **(لُغَةِ القرآن)** فيه شَدٌّ لأَزره، وحَفْزٌ على التَّفَقُّه في دينه؛ وفَصْلُ المسلم عن لغة دينه هو اجْتِثَاثُه من واقعه، وحَوْلٌ دُونَه ودون الاطلاع على أصول عقيدته.

مِنْ هنا، تعالت الأصوات لإحياء الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا، والفارسية في إيران، إلى غير ذلك[1].

وكان حرص المستشرقين على اختيار «**المناهج**

---

(١) الاستشراق والمستشرقين ص٥٤.

التعليمية» عن كَثَبٍ، فأُنْشِئَت المدارس الابتدائية فالثانوية فالجامعات، بما يَضْمَنُ تَطْبِيع طلابها، مِمَّنْ يُتَصَوَّر أن تكون لهم سياسة بلدانهم إثر إنهاء دراستهم العليا، فكانت مَثَلاً: مدرسة عبيه في **لبنان**، وكلية رُوبَرت في **إسطانبول**، والجامعة الأمريكية في **بيروت**، والكلية الإنجيلية في **سوريا**، والجامعة الأمريكية في **القاهرة**، وكلية غوردن في **الخرطوم**، وجامعة القديس يوسف في **لبنان**، وغيرها كثير.

وهي معاهد تعليمية تشد أَزْرَهَا دُورُ طِباعة تَنْشُرُ ما يُؤَلِّفُ فيها صَبَاحَ مساء، وتَبُثُّه في أوساطها وخارجها، سَيْلٌ عَرِمٌ من الدراسات والمعلومات.

واشْتَرَكَ جِبّ، ولُوِي ماسِينْيُون، ومَرْجُولْيُوث، ونِيكُلْسُون، في **المَجْمَع اللُّغَوِيّ بِمِصْر**؛ واشترك جوتهيل وجويدي الإيطالي في **المجمع العلمي بدمشق**؛ وألفت المجلات العلمية والرسمية في البلاد العربية، ونشروا المجلات المختصة، مثل: (**المجلة الآسيوية**)، و(**مجلة العالم الإسلامي**)، و(**مجلة**

الإسلام)، و**(مجلة الشرق الأوسط)**، بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وروسيا وألمانيا.

وأقاموا الندوات العلمية، والمحاضرات الثقافية، مثل: **مؤتمر القاهرة** في عام ١٩٠٦م، **ومؤتمر بيروت** في عام ١٩١١م، **ومؤتمر القُدس** في عام ١٩٢٤م، **والمؤتمر العالَمي للكنائس** في جاكرتا في عام ١٩٧٥م.

ولقد نجح **(جنود التبشير والاستشراق)** إلى حد ما، وفي كثير مما أرادوا، ولئن لم ينجحوا في إِزْدَاد المسلمين عن دينهم، فقد نَجَحُوا في إثارة الشُّبُهَات والاتِّهامات للدين، كإخراج **(دراسة القرآن)** من المدارس، وكذلك [مادّة] التَّاريخ الإسلامي، حتى يكون على حد عبارة خَطِيب جبل الزَّيْتُون: «لإِخْرَاج ناشئة، لا هي مسلمة، ولا مسيحية، ولا يهودية، ناشئة مُضْطَرِبَة، مَادِّيَّة الأغراض، لا تؤمن بعقيدة، ولا تَعْرِفُ حَقًّا، فلا للدين كرامة، ولا للوطن حُرْمة».

فيتخرج من مدارسهم: أبناؤنا في الظاهر، أعداؤنا في الباطن، وَيَتَوَلَّوْن مَقَالِيد الحُكْم في ديارنا، ويُنَفِّذُون رُوَيْداً رُوَيْداً ما ارتآه الغَرْب لنا؛ ويُرَبُّوا أجيالاً لا تُقِيم وَزْناً لِمَاضِيها، ولا تَعْرِف أو تَعْتَرِف بأمْجَاد أُمَّتِها، وتاريخها ولُغَتِها، بل تتسامح مع الاستعمار والتَّغْرِيب.

بَعْدَهَا، لا يرد غريباً التنبيه أننا نرى أيضاً من المستشرقين مَنْ كان من أصل عربي، وسلالة إسلامية، وهم الذي سَمَّاهم د. علي جَرِيشَة بـ«**تلاميذ المستشرقين**»؛ فَمِمَّا العَجَب [إذاً]؟

أفلم يُنَبِّهْنا الرسول الأكرم ﷺ في حديث عن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشّر مخافة أن يُدْرِكَنِي، فقلت: يا رسول الله! إنَّا كُنَّا في جاهِلِيَّة وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فَهَلْ بعد هذا الخير من شر؟ قال ﷺ: «**نَعَمْ! فيه دَخَنٌ**». قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: «**قوم يَهْدُون بغير هَدْيي، تعرف**

منهم وتُنْكِر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نَعَمْ! دعاة على أبواب جهنم، مَنْ أجابَهم إليها قذفوه فيها». قلت: صِفْهُمْ لنا. قال: «هُمْ مِنْ جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»[(١)].

ولئن كنا لا نتجاسر على تأويل [هذا] الحديث الشريف، ولا التّهجُّم على الناس، فإننا لا نَأْلُو إلاً أن نَتَسَاءل عن صِلةِ هؤلاء بأمثال **يُوحَنَّا** الدّمشقي، الذي تَسَمَّى باسم مَنْصُور في كتابه: **(حياة محمد)**، مما يُحَدِّثُ عنه المستشرق **(غيُوم: Gayoum)**، أو أمثال: **عزيز عطية سُرْيَال** وكتاباته عن **الحروب الصليبية**، أو **طه حسين**: المصريُّ الْجنسية، ومُؤَلَّفُه: **(مستقبل الثقافة في مصر)**؟.

إلا أنه مِنْ بَيْن **المستشرقين** أعلام مُنْصِفُون، منهم: **إميل دَرْمَنْجَم**، الذي يقول: «إنه من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر ارْتُكِبَتْ أغلاطٌ كثيرة، ارتكبها أمثال: **(باسكال: Pascal)**، و**(ريمون**

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

دول: (Raymond Dol)، و(بوستل: Postel)، و(رولان: Roland)، و(رينان: Renan)، و(فولتير: Voltaire)، و(مونتسكيو: Montesquieu).

وإن أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين إنما جاءت مِنْ قِبَلِ الْمَسِيحِيين، وقد أَيَّدَ هذا الرأي (ل. جوفارا: Geoffara) في كتابه: **(مائة مشروع لتقسيم تركيا)**[1].

ومنهم أيضاً: (**كارليل**: Karlel) إذ يقول: «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر، أن يُصْغِيَ إلى ما يُظَنُّ مِنْ أَنَّ دين الإسلام كَذِبٌ، وأن محمداً خَدَّاعٍ مُزَوِّرٌ، وأنّ لنا أن نُحَارب ما يُشَاع من هذه الأقوال السَّخِيفَة الْمُخْجِلَة».

ومنهم: (**هنري دي كاسترو**: Henri De Castro) في كتابه: **(الإسلام)** عام ١٨٩٦، و(**غوستاف لوبون**: Gustave Le Bon) في عام

---

(١) شكيب أرسلان: «حاضر العالم الإسلامي».

١٨٨٤، و(**كارليل**: Karlel) في عام **١٨٩٠** يدافعون عنه ويُنْصِفونه.

ومنهم من أَسْلَمَ أَصْلاً مثل: (**خالد شُلْدْرِيك**: Khaled Sheldrick)، **وهاري هبيكل**، و(**اللورد هدلي**: Lord Headley)، وعبدالله **كوليام** من إنجلترا، والدكتورة **لُورَا فِينِيشِيَا فَالِيري** من إيطاليا، و(**لِيُوبُولْد فَايِس**: Léopold Faye) من الْمَجَر.

إن **غوستاف لوبون** يَكْشِفُ عن عَجْزِ النَّفس الغربية في الاعتراف بالفضل لأصحاب الفضل، ويَنْعَى بذلك عليهم في عبارة صريحة قائلاً: «**عزيز على أبناء قومنا أن يُقَرِّروا: بأنَّ الرواية المسيحية لم تخرج من ظلمات الهمجية، إلا بفضل الكفار، وليس بهيّن قبول هذا الأمر المحض ظاهراً**».

ويقول أيضاً: «**لقد تراكمت أوهامنا الموروثة في الإسلام والمسلمين، بتعقب القرون، فصارت جزءاً من مزاجنا... فإذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة على المسلمين الزعم الباطل الآتي، والذي**

زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة: وهو أن اليونان واللاتين، هم وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي، أدركنا السر في جحودنا لفضل العرب العظيم في تمدن أوروبا».

ويقول وولز: «إذا طلب مني أحد أن أحدد له الإسلام، فإنني أحدده بهذه العبارة: الإسلام هو المدنية».

أما برنارد شو، فإنه يدعو إلى أن يُلَقَّبَ الرَّسُولُ بـ«منقذ الإنسانية»؛ ويرى أنه لو عُرِضَتْ على النَّبِيِّ أَخْطَرُ مَشَاكِلِ العالم، لَحَلَّها وهو يَرْشُفُ قَهْوَة.

وعن فضل الإسلام ومزاياه، يقول (دوفال: Duval): «من فضل الإسلام وإحسانه: زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا، وتحريم القرابين البشرية، وأكل لحوم الإنسان، وحفظ حقوق المرأة، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وضبطه، وتوطيد أواصر الأسرة،

وجعل الرقيق عضواً منها، وفَتْح أبوابٍ كثيرة لتحريره، وتهذيب الطبائع العامة...»[1].

ويعترف شيريل عميد كلية الحقوق بجامعة فِيينَّا الكاثوليكي المذهب في خطابه بـ«**مؤتمر الحقوقيين**» في عام ١٩٢٧م قائلاً: «إن البشرية لَتَفْخَرُ بالانتساب إلى رجل كمحمد؛ إذ أنه رغم أُمِّيَّتِهِ استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام».

(١) غوستاف لوبون: (**حضارة العرب**) تعريب عادل زعيتر.

الفصل الثالث

- ❑ المواجهة الإعلامية.
- ❑ منهاج الحملة.
- ❑ أسباب الحملة.
- ❑ آثار الحملة.

المواجهة الإعلامية

ذلك ما انْتَهى إليه أقرب المستشرقين إلى قول الحق، والحرصِ على الإنصاف بِفِكْرٍ حُرٍّ.

لكنَّ مَنْ سِواهُمْ، قد استَهْوَتْهُم سِيَاسَات دُوَلِه، فانقادوا في مسيرتها زُمَراً، لا يَعُونَ ما يَدَّعُونَ، ولا يَتَحَرَّجُون فيما يَفْتَرُون [ويَقْتَرِفُون]، فكانت الحملات **(الإعلامية المعاصرة)** نَفْخاً في الأبواق، واسترضاءً لذوي الأذواق، نِفَاقاً وخِدَاعاً؛ وإذ لا يسعنا تَتَبُّعُهَا فقد اتَّسَعَ الخَرْقُ علَى الرَّاقِع، فإننا سنكتفي منه ببعض النُّبَذ الشواهد، دليلاً على اتّجاهاتها، وبياناً على تَظَلُّمَاتِها...

ولن نُعَرِّجَ على (مجلة التايمس [Times]) الشهيرة العداء للإسلام، وإنما سنكتفي بذكر بعض

المفكرين المعاصرين: صَحَافِيِّهِمْ ومُؤَلِّفيهم، سِيَاسِيِّهم ومُفَكِّرِيهم، فنذكر بعض أسمائهم، ونُبَذاً من أقوالهم، مما بَثُّوهُ في كُتُبِهِم، أو في المقالات، وبيانات الأنترنت [(Internet)].

من هؤلاء:

- (صموئيل ب. هنتقتون: Samuel P.Huntington) صاحب كتاب: (صدام الحضارات).
- سوفي لسبانيون.
- حميد الشاوي العراقي.
- الماروني صقير.
- قزافييه روفر.
- جرمان تليون.
- (أرنولد هوتنجر: Arnold H.).
- المصري سيد عشوامي.
- إيفه عبت.

● برنسال هوقز في قصته «سفينة محمد».

وقد تنوعت أقوال هؤلاء واتِّهَامَاتهم، فرأَوْا أن الإسلام ديناً لا يَقْبَلُ الحُبّ، ولا يسمح بممارسة العشق، دليلهم على حد قولهم مراهق باكستاني يرى: أن أكثر الباكستانيين يحبون في الخَفَاء... وأن الإسلام يَقْتُلُ الحُبَّ في بَيْضَته قبل أن يَنْقَف؛ وأَنَّ ألف امرأة في الباكستان تُقْتل بسبب الحب ومغامراته، حرْصاً من أهلها المسلمين على الشرف.

وأنّ الإسلام دين حَرْب وقِتال، فَعَدَد النصارى واليهود في تناقص واضح بين ظهور المسلمين في البلدان الإسلامية، هذا ما انتهى إليه بت ياعور في كتابه: (النصارى واليهود في إسلام العرب والترك).

أما (برتران روسّال: Bertrand Russal) العالم والفيلسوف، المتحصل على جائزة نوبل للسلام، فقد انتهى إلى أنه «من بين الأديان، يجب أن نُقْرِنَ الإسلام بالبلشفية دون قَرْنِه بالمسيحِية أو البُوذِية؛

فالمسيحية والبوذية هما قبل كل شيء دينان ذَاتِيَان، ذَوَا معتقدات صوفية وحُبّ للتَّأمّل؛ في حين أن للإسلام والبلشفية نوايا عملية واجتماعية ومادية، هدفها الوحيد: نشر السّلْطان على العالَم».

والإسلام في رَأْي (جُون إِيفْ لُوقَالُوَا: Jean-Yves Le Gallois): أكثر عنصرية من نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، فهو ينظر إلى «الذّمّي» نَظْرَةَ دُون، ويُحَرّم عليه رُكُوب الخُيُول، أو امتلاك السلاح، ويطالبهم بالوقوف بين يدي المسلمين، إذا مروا بتواضع وتذلل، وهو إذا افترض عليه أداء الجِزْية، فقد شَرَّع للمسلم اغْتِصَاب مال غير المسلمين: أداء جِبَايَة لِحِمَايته تَمَاماً كما تفعل عصابات المافيا في كل إيطالي خارج بلده... أو كما يفعل مُتَسَكّعو العرب في فرنسا: تَلَصُّصاً ونَهْباً... ولَئِنْ رأى لُوقَالُوَا أن للذمي حق الحماية بما يُقَدّمُه من جِزْيَة، فقد ذهبت مجلة بستيان ٥٢ إلى أنّه لاَ حُرْمَة لـ«حَرْبِيّ» ولا «ذِمّيّ»، فلا حَقّ له ألْبَتَّةَ في الإسلام؛ وكَمَا للكلمة في الإسلام من

ظاهر وباطن، فإن للمسلم وَجْهَيْن: مخادع ومنافق، فإن حَدَّث حَدِيث السِّلم فلغاية في نفسه ورِبْحاً للوقت حتى يَتَمَكَّن من الانْقِضَاض، دليل ذلك الحكمة المشهورة: «أن اليد التي لا تستطيع عَضَّهَا قَبِّلها».

ولكل هذه الأسباب، انتهى هؤلاء المفكرون، أن الإسلام لا يتماشَى والغَرْب، وأنه لا يُطِيقه، ولا طَائِل منه؛ هذا بخصوص رَأْي هؤلاء في الإسلام عامة.

أما رأيهم بالنسبة **للمرأة المسلمة**، فقد اتفقوا على أنّ «**الحِجَاب**» هو أساس ما تَعِيشُه **المسلمة** من إنْكَار المجتمع الإسلامي مُسَاوَاتها للرجل، **فالمرأة المسلمة** نِصْف الرجل في قيمَتها، وشهادتها، وإرْثِها.

وهي فَاقِدَة «**الحقوق**» أَصْلاً، وهي متى تَحَجَّبَتْ فقد فقدت أبْعَادَها الجِسْمِيَة، وحُضُورَها الجَسَدي، فلم يعد لها مجال للفَرَحِ أو السُّرُور:

«النّسَاءُ يَفْقِدْنَ بالحِجَاب مُتَعَ الحياة ومَسَرَّاتِها، إنَّهُنَّ يَفْقِدْن أجْسَادَهُنّ وشَخْصِيَّاتِهِنّ»، على تعبير فيكي قيومات وماريلين روبار.

والمرأة المحجبة غالباً ما تكون امرأة مَخْتُونة بدليل كثرة المحجبات بألمانيا، وبَلَغَ عَدَد الْمُخْتَتِنات بها عشرين امرأة.

فَطَبِيعِيٌّ أن تَفْقِد **المرأة المسلمة** الأَمَل من الحياة بَلْ كُلَّ الأَمَل، أليس حِجَابِها يَمْنَعُها من الدّراسة والتَّعَلُّم، وحَقّ التَّطَلُّع والشُّغْل خارج البيت؟

بَلْ أَلَيْس حِجَابها يَفْرِض عليها تطبيق **الشريعة الإسلامية**، ومِنْ أَهَمّ أرْكَانها: تَعَدُّدُ الزَّوْجَات؟

أليس ذلك حَائِلاً دون تَطَلُّع **المرأة المسلمة** حَتَّى لِحَيَاة عَائِلِيّة أُسَرِيَّة سَعِيدة؟

فما بَالُنَا نَعْجَبُ إذا انْتَهَى بنا البحث والتَّقَصِّي إلى أن **الحجاب** مَدْعَاةٌ إلى الانْتِحَار، انْتِحَار المرأة لِتُرِيح وتَسْتَرِيح؟

إلى غَيْرِ ذلك من أقوالهم التَّافِهة، التي لا يقف عندها ذُو عَقْلٍ رَشِيد، وبَصَر سديد.

فهذا هو مُحْتَوَى (الحملة الإعلامية المعاصرة)، التي تَشُنُّها وسَائِل الإعلام على المرأة المسلمة.

مِنهاجُ الحَمْلة

١ ـ تَعَمُّدُ أربابِه قلب الحقائق رأساً على عقب:

فجعلوا الشهادة، وهي قول: (لا إله إلا الله)، تَعْنِي: رَفْضَ المسلم لكل سُلطان، سوى سلطان الله وحُكْمِه.

وما قالوه إنما هو كلمة حقّ أُرِيدَ بها بَاطِل، فلم يقصدوا بها تَحَرُّر من استعباد أخيه له، وإنما جعلوها سبباً لِهَمَجِيَّة المسلم، وخروجِه عن كل نظام حضاريّ مدنيّ بشريّ، وجعلوا تنظيمه العلاقات الاجتماعية دليلاً على استبداده وتَسَلُّطِه، وهنا لم يعد المسلم همجياً فوضوياً، إنما صار ذليلاً مُقَيَّداً لا حقّ له في الحب والسعادة، بدليل أن الإسلام يرفض الحرية الجنسية.

ورأوا لذلك في الإسلام، أنه دين حرب لا سِلْم، بدليل أنَّ قدوة المسلمين: هو الرسول الكريم ﷺ، وقد شارك في ثمانين معركة حربية[1].

أما المسيح فقد تَرَفَّع عن السلاح، فلم يحمل سيفاً بيده مطلقاً، ودليل ما نُشاهده في واقعنا الراهن من نزيف الدماء، على جميع أرض الإسلام، فلو لم يكن العيب في المسلمين لما اسْتُهْدِفُوا وحُورِبُوا فَحَارَبُوا.

٢ ـ تَعَمُّدُ البُهْتَان المبين:

بإلصاق التُّهَمِ للإسلام ما ليس منه، من نحو تمييز عُنْصري، وإكراه في الدين، وإذلال لغير المسلمين؛ وقد وصل ببعضهم البهتان إلى جَعْلِ طَلَبِ المسلم «أَطْعِمَةً حلالاً» في المستشفيات

(١) وهو رقم غير صحيح، فإنّ كُتُب السيرة تُجمع على أن «غزوات الرسول ﷺ» سبع وعشرون فقط، ولم يكن فيها قتال سوى في تسع غزوات: بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحُنَيْن والطائف.

بل إِنَّ منهم مَنْ نَعَتَ الإسلام بالدُّودة القذرة، وبالجرثومة التي لاَ بُدَّ مِنْ مقاومتها.

ونَادَوْا جَهْرَة بوجوب قَطْع كُلْ جِوار مع المسلمين.

وهل يَخْشَى [تلك] «**الكلمة**» إلا الطغاة في الأرض؟

تلك هي إذاً مظاهر «**الحملة الإعلامية على الإسلام والمرأة المسلمة**».

أما أسْبَابها فَنُحَاوِل تَعْلِيلَها كالآتي:

أَسْبَابُ الْحَفْلَةِ

إن الاختلاف بين البشر واقع طبيعيّ، كما أنّ الاتِّفَاق حقّ بَدِيهِيّ: فهذا الحقّ يُعَلِّمُنَا أنّه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨].

و[كلمة] «لو» في اللغة العربية حَرْفُ شَرْطٍ وامْتِنَاع، يفيد امتناع وقوع ما بعده.

هكذا شاءت القُدْرَةُ الإلهية... خَلَقَكُمْ شُعُوباً وقبائل لِتَعَارَفُوا... فاخْتِلاَفُ الشُّعُوب في ظاهرها واقع لا مِرَاءَ فيه، ولا يَغْفَلُه ذُو بَصَر؛ ولكنَّ الثَّابِت أيضاً أَنَّ اتِّفَاق الأَجْنَاس والشُّعُوب حَقِيقَة يُدْرِكُهَا كُلُّ ذِي بَصِيرَة:

ـ «فَكُلُّكُمْ لآدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ».

ـ «**يُولَدُ الْمَرْءُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**».

ففِطْرَتُنَا وَاحِدَة وثَقَافَتُنَا مُتَعَدِّدَة، أو نحن واحد في عدة.

فَرُؤَانَا إِذَنْ مُخْتَلِفَة باخْتِلاَف «**الحَضارات**» التي منها نشأنا، وفيها وُلِدْنَا.

و[بالتّالي، فإنَّ] حضارتنا البشرية متنوعة بِتَنَوُّع المجتمعات الصغيرة، بَلْهَ الكَبِيرَة.

وبَدِيهِيّ أنّ كُلاًّ مِنَّا ـ أول نشأته ـ يأخذ ما قَدَّم له والداه، في إطاره الضَّيِّق الْمَحْدود:

عَـلَـى مَـا كَـانَ عَـوَّدَهُ أَبُـوهُ
يَـنْـشَـأُ نَـاشِـىءُ الـصِّـبْـيَـانِ مِـنَّـا

ظانًّا أنه قد اكتسب الدنيا وما فيها، مُسْتَغْنِياً عَمَّنْ سِوَاه، مُتَخَيِّلاً ذَاتَهُ وَذَوِيه قُطْب الدنيا ورَحَاها، فإذا **بباريس** عاصمةُ الدنيا، وإذا **بالقاهرة أُمُّها**.

تلك هي الطفرة الأُولَى التي تأخذ الأيام في

مُقَارَعَتِها ومُعَاكَسَتِها، تَأْخُذ في ذاك عندما يُجاوز الطفل حِجْر أُمِّه وبَابَ أَبِيه، بَيْتِه وأَقْرَبِيه، فإذا الدنيا غيرها، وإذا الآخر موجود نحس له وقعاً.

وإذا كان لكل قادم دَهْشَة، فإننا مَدْهُوشُون في الزمن الأَوّل وَبَاهِتون:

فإما أن نعود إلى أنفسنا مُرَاجِعِين... مستفسرين... فاحصين...

وإما أن نعود إليها مُكْتَفِين مُتَرَفِّعِين، مُتَّهِمِين الآخَر بالعُقْم، والحُمْق، والضَّلاَل المُبين...

هذا شَأْنُنَا، وذاك سَبِيلُنَا...

ثم [وَكَمَا قال تعالى]: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

و[كذلك] إذا شاء رَبُّك شَيْئاً [فله ذلك]، كما يقول:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وله أن يجعل أسباباً بها يكون، وهَذِه الأَسْبَابُ عامَّةٌ تَضْرِبُ جُذُورَهَا في الماضِي، فكما أَنَّ الغَدَ هو ابْنُ اليَوْم، فإنَّ الحاضر هو سَلِيلُ المَاضِي، لا يكاد يخرج عنه بِطَفْرَة.

قد نُعَلِّلُها عدة تعليلات، منها:

ـ **الفِطْرية**، ونَعْنِي بِهَا: وَلَهُ النَّفْس بما اعْتَادَت، وكُرْهُهَا كُلّ جَدِيد.

وقد نُعَلِّلُها بـ:

ـ **أسباب نَفْسِيَّة**، تَتَمَثَّلُ في أنَّ المَرْءَ كان إنسانَ عَدُوٌ لِمَا جَهِلَ.

وقد نُعَلِّلُها تَعْلِيلاً:

ـ **وُجُودِيًا فَلْسَفِيًا**، ونَعْنِي بِهِ: اخْتِلاَفَ الرُّؤَى بَيْنَنَا وبين **الغَرْب**، فَبِقَدْرِ مَادِّيَّتِهِ رُوحَانِيَّتُنَا، وبِقَدْرِ انْغِمَاسِهِ فِيهَا تَرَفُّعُنَا، ومِنْ شَأْنِ هذا الانْفِرَاج، أَنْ يُشَادَ أَصْحَابُه فَيُقْلِقُهُمْ وُجُودِيًا مَوْقِفُ سِوَاهُم، ويَبْعث فيهم حَيْرَةً لا يَجِدُون منها مَخْرَجاً:

فإمّا إلى تَغْيِير الرُّؤَى والتَّحَوُّل إلى الإسلام؛

وإمّا إلى الإصْرَار على الرَّأي الأوّل ومُعاداة كُلّ مُعَارِضيه.

وقد نُعَلِّلُها تَعْلِيلاً:

- دِينِيًا، إنْ صَدَقَ هَؤُلاء في إيمانهم.

أو قد نرى أسباب هذه الحملة في ما تُرْجَى مِنْ ورائها الحكومات والشُّعُوب، من استغلال اقتصادي، واستِثْمَار مالي.

● يقول (ريتشارد وود: Richard Wood): إنَّ مِنْ أَكْبَر بَوَاعِث سُوء التَّفَاهُم بَيْن أُورُوبَّا والإسلام، هو انْتِشَار الظَّنِّ في أوروبا بأن الإسلام دين القُوَّة والسَّيف، وهذا مخالف للواقع:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

● ويقول غاندي: «إن بساطة النبيّ التامة، وإنْكَاره الكُلّيَّ لذاته، واحترامَه الدَّقِيق لِعُهُوده،

وإخْلاَصَه الشَّدِيدَ لأصدقائه وأَتْبَاعِه، وشَجَاعَتَه وبَسَالَتَه، وثِقَتَه الكامِلَة بالله ورسالته، لا السيف، هي التي جَرَفَتْ كُلَّ شَيْء أمام المسلمين الأوَّلين».

● ويقول (هورتن: Horten) الألماني: «لم ينشأ ظَنُّ الأُورُوبِيِّين بِأَنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يَتَمَشَّى مَعَ المدنِيَّةِ إلا نَتِيجَةً مُبْهَمَة لهذا الدين، وَلِعَدَم تَعَمُّقِهِمْ فيه، بل لِتَعَلُّقِهِمْ بالقُشُور الَّتِي لاَ يَفْهَمُونَ مِنْهَا إلاًّ ما يَكْتُبُون، فالغرب يَسْتَمِدّ ثقافَتَه وفِكْرَه من الثَّقَافة الإغْرِيقِيَّة، والْحَضَارة الرُّومانية».

* * *

إن طبيعة العلاقات بين الغَرْب والعالم الإسلامي، منذ ظُهُور الإسلام إلى يومنا هذا، تُبَيِّنُ كيف يُمْكن للعَوَاطِفِ والأَهْوَاء أن تُمْلِيَ التاريخ بصورة مُشَوَّهَة، هي أبعد ما تكون عن الصِّدْق.

ـ سبب **الخوف**: يقول (أرنولد توينبي: Arnold Twinbi) في كتاب **(الحضارة في فترة اختبار)**: «**أشد** ما خَشِيَه الغَرْب من الحضارة الإسلامية الناشئة، أنها

كانت تَسْتَنِدُ إلى مَثَلٍ أَعْلَى فوق المادة، ولا ينفع في دفعه ما لدى الغَرْب من أسلحة مادية».

ويؤكد أن الإسلام لم يدخل في معركة مع رسالة، ولكن مع الكنيسة المسيحية، التي استولت على عقول الروم، واستسلمت إلى ما دَعَتْ إليه الوثنية الإغْرِيقية من الشرك وعبادة الأصنام.

ـ **عيب الغَرب**: التحول المباشر من التلميذ إلى المستفيد إلى العدو المقاتل الناكر للفضل بمجرد استيعابه علومنا، وتطبيقه مفاهيم الغرب للمسيحية على الإسلام، فَكُلٌّ بِما فيه يرشح.

ـ أنه يريد توحيد العالم، نعم؛ ولكن تحت سلطانه، تقول الكاتبة الفرنسية (مدام سانت بوانت: Madame Saint Point): «أَتَّهِمُ الْمَدَنِيَّةَ الغَرْبية بأنها قَصَّرَتْ عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها أُلْقِيَتْ على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أَعْنِي: المهمة التي ترمي إلى نشر تعليم الإنسانية، وتَعْمِيمِها على وجه الأرض، وتُؤَدِّي إلى الاتِّحَاد.

لقد أراد الغَرْب أَنْ يُوَحِّد العالَم ولكنْ تحت سلطانه، ولمَصْلَحته، والعالَم لا يُسَاس إلا بالعَدْل، وبالحب والإخاء، وبِرَدِّ الحُقوق إلى أهلها؛ ولكنَّ الغَرْب لجأ إلى القوة الغاشِمَة، وعَبَث بالشرائع الدِّينِيّة، وخَالَف تَعَالِيم المسيح عيسى، الذي أَمَرَ بمحبة الناس أجمعين».

- **كل مسلم داعية فهم يخافوننا؛** دليلنا: الفتوحات السِّلْمِيّة في أندونيسيا، وتَحَوُّلُ أُمَراء الْمَغُول إلى الإسلام بتأثير زوجاتهم. حادث واحد في عهد الإمبراطور (جهانگير: Empereur Jahângîr) ١٦٢٨م في بلاد يتشنج بين الدانوب الأعلى ونهر الدون، كان العالم السني «أحمد مجدد» يدعو إلى الإسلام فَلَفَّقَتْ له بعض الفِرَق الوَثَنِيَّة التُّهَم للتَّخَلُّص منه فسُجِنَ سَنَتَيْن؛ فما هالَهُم إلاّ أن اعتنق الإسلام مئات السُّجَنَاء الوثنيين بعدها.

- **الإسلام الْمُتَّهَم؟** ذلك أن الإسلام يَحْمِل في صَمِيم تَعَالِيمه قُوَّة للمُقَاوَمَة والدِّفَاع عن النَّفْس لا حَدَّ لها، فَضْلاً عن أنه ليس دِيناً فَحَسْب، إنما هو

دِين، ومُجْتَمَعٌ وحَضَارة؛ وهو يَمُدُّ الإنسان أنَّى كَان، ومَتَى كان بجذوة حياته لا تخبو، تتجدد أبداً على الأيام.

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَأْن، فلسنا هنا بِصَدَد مُحَاسَبة النّاس عَمَّا كَسَبَتْ أيديهم، فالله ربُّ السَّرَائر وهو مُتَوَلِّيهِم ووَلِيّنا، إنما نريد أَنْ نَطْرَحَ سؤالاً فيه من الحياد الكبير، ومن الإنصاف الكثير، فنقول:

إنْ كان الغَرْبُ قد اتخذ مِنّا هذا الْمَوْقِف، أَتَرَاه ظَلَمَنا فيه الظُّلْم كُلَّه؟ أي: إما ترانا دفعناه إلى مثلها دفعاً؟ فإنْ تَهَجَّمَ على ديننا، أَفَلَسْنَا الْمَسْؤولِين بِصَمْتِنا في الزَّمن الماضي، حتى انْدَثَرَتْ الحقائق أو كادَت، وعَمِيَتْ الأبصار بعد البصائر؟

أَلَسْنا مَدْعُوِّين أمام الله ورسوله أن نُعْلِنَها كلمة حَقٍّ لا تَنِي؟ ما عُذْرُنا بين يدي الحق يوم لا تَزِرُ وازرة وزر أخرى، فَيَتَّهِمُنا سِوانا بِعَدَم أداء الأمانة، وعدم تَحَمُّلِ الرِّسالة؟

ولَئِنْ تَهَجَّمَ علينا، أَفَلَسْنا في مَوْقِف خَلَل،

فَكِدْنَا أنْ نَبتعد عن ديننا في كل كبيرة وصغيرة [إذْ] لم نُعِدَّ العِدَّة؟

ولئن لاَكَتْنا الأفواهُ بكل نَقِيصَةٍ ومَغَبَّةٍ فاتَّهَمَتْ نِسَاءَنا بِكُلِّ سَبَّة، أَفَلَسْنَا المسؤولين والمسؤولات عنها؟

ودعنا نَجْهر بها صافياً عَلَناً: أَلَمْ نسمع من إخواننا في الله، ومِنْ كَثير مِمَّنْ أَسْلَمَ حديثاً قَوْلَهُم: «**الحمد لله أنني عَرَفْتُ الإسلامَ قبل أن أعْرِفَ المسلمين؟**».

أليس في هذا اتِّهَامٌ لنا دُونَ ديننا، وأَيُّ اتِّهام؟

بَلَى! إنه هُوَ، ولاَ مِرَاء.

مِنْ هُنَا جاز لنا القَوْل: «**رَحِمَ اللَّهُ امْرَءاً أَهْدَى إلَيَّ عُيُوبِي**».

وللتَّذْكِير، فَإِنَّ الكَيِّسَ كما يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**مَنْ دَانَ نَفْسَه...**» [الحديث]، فَلْنُدِنْ أَنْفُسَنَا، ولْنَنْظُرْ إلى عَوْرَاتِنَا مِنْ أَيْنَ أُتِينَا فَأُكِلْنَا.

- **العيب في المسلمين**: يقول (ليون روش: Léon Roche): «إني بحثت في تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة، وَوَدَاعَةً وجمالاً وكَرَماً؛ ثم وجدتُ هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة؛ ولقد وجدتُ في الإسلام حلَّ **المسألتين** الاجتماعيتين اللتين تَشْغَلاَنِ العالَم طُرًّا:

● **الأولى**: في قول القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية.

● **والثانية**: فرض الزكاة على كل ذي مال، وتخويل الفقراء حقَّ أَخْذِها غَصْباً إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طَوْعاً، إنه دين الْمَحَامِدِ والفضائل، ولو أنه وَجَدَ رِجالاً يُعلّمونه الناس حق العلم، ويفسرونه تمام التفسير، لَكَانَ المسلمون أرقى العَالَمِين، وأَسْبَقَهُمْ إلى كل الْمَيادين».

ويقول مستشرق مَجَري: «إن فقهكم واسع جداً، إلى درجة أنني أَقْضِي العَجَبَ كُلَّما فكَّرْتُ في

أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم».

ويقول لويس بوفا: «إن الانحطاط الذي وقع فيه المسلمون، له أسباب متعددة، ليس الذَّنْب في أكثرها على المسلمين، بل على الحُكْمِ المطلق وجَهْلِ الْحُكُومات، مما أدَّى إلى انتشار الجهل، واضطرار دول الإسلام إلى خوض حروب كثيرة، وسوء خطة الغربيين في معاملة المسلمين».

[وبالتّالي] فإِنْ كان هناك من مَغْمَزٍ، فعلى المسلمين دون الإسلام: فقد كان الإسلام محجوباً بهم، مهضوم الجانب بسببهم، وبما كسبت أيديهم، والله منه بَراء.

* * *

ليس وضع المرأة المسلمة بالوضع الحسن، فقلّبِ البَصَرَ لا ترى إلا نساء عديمات الْهِمَّة، شَغَلَتْهُنَّ الحياة عن كل مَجْد، مُقْبِلات على مشاكل الحياة اليوميّة: من أكل، وطبخ، وتنظيف، وغسل، أفبهذا تتفتح الأُمم؟ أم على هذا تُرَبَّى الهِمَم؟

كُلُّ هَمِّهن تَرْتِيب البَيْت، وحُسْنُ التَّبَعُّل: هُنَّ من الْمَطبخ إلى الفراش؛ ومِنَ الْمُهاتَرات الكلامية على اقتناء الرياش؛ تَجِدْنَهُنَّ بين اثنين: مُرَهَّلَة... مُبْتَذَلَة... الابتذال كله... تَنْبُو عنها العَيْنُ متى رَأَتْهَا... وبيْن مفتونة بجمالها، مُتَأَنِّقَة عَابدة لِمُوضَات الغَرْب مُقَلِّدَة... برامجها الْمُفَضَّلَة: «هي» اللبنانية أو «(آف: F)» الفرنسية...

وليس العيب عَيْبَ المرأة فَحَسْب، إنما هو عيب الرجل أوَّلاً، وأخِيراً، فهو صاحب القَوَامَة، وصاحب الرأي، ورحابة الصَّدر؛ وهو الْمُثَقَّف عامّة، والْمُتَدَيِّن، فكيف تَأَتَّى له ذلك الصَّمْت؟ أم تراه يَؤُزُّ المرأة أزّاً حتى تكون على ما هي عليه اليوم!

فإِنْ كان هذا شأن نسائنا ورجالنا، فهل نحن خير أمة أخرجت للناس؟ ومتى يُسْفِرُ الصُّبح؟

آثار الحفلة

والآنَ، سَيَتَّجِهُ ردُّنَا على هذه الحمَلات إلى اتجاهين مُتَوَازِيَيْن، أولهما: **التَّذْكِير**، وثانيهما: **التَّنوير**.

ـ **فالتَّذكِير**، في ما كان للمسلمين من حضارة دَوَّخَتْ الدُّنْيا وأَعْجَزَتْها.

ـ وأما **التنوير** فاَطِّلاع المتحاملين علينا بِنُبَذٍ من تاريخهم، كيف كانوا؟ وكيف كُنَّا؟

ـ **الشَّريعة الإسلامية، شريعة فِطْرَةٍ**: ليون رُوش ـ السياسي الفرنسي، الذي تظاهر بالإسلام، ليتجسَّسَ على الأمير عبدالقادر الجزائري ـ في كتابه

(**ثلاثون عاماً في الإسلام**)[1]: «إني عدت إلى الشريعة التي يُسَمِّيهَا (جول سيمون: Jules Simon) الشريعة الطبيعيّة، فوجدتُها كأنها أُخِذَتْ أخذاً من الشريعة الإسلامية».

ـ **تسامح الإسلام مع الغير**: فضلاً عن أنه يَتَرَفَّعُ عن كل عُنصرية، وقَوْمِية ضَيِّقة، فلا يُعَادِي مِلَّةً لِمُجَرَّدِ العَدَاء أو بسبب الانْتِمَاء، إنما يفتح صدرَه لها، يأخذ منها الحق والأصلح، لِيَضُمَّه إلى حضارته، ومعترفاً لها بحق البقاء، على تَمَيُّزِهَا إنْ هِيَ شاءَت وارْتَضَتْه لِنَفْسِهَا، هكذا فَعَلَ مع الحضارات القديمة، وهكذا شأنه مع علوم الأمم السابقة ومعارفها؛ فقد نَقَلَ عن اليُونَان والإغريق، فاستفاد وأفاد منهم، وحافظ على ميراثهم، ولم يُنْكِرْ عليهم، بل نَصَّ على كُلِّ ما أَخَذَه عَنْهُم، ونَبَّه إلى مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ.

ـ يُثْبِتُ الْمُؤَرِّخ الإيطالي (أَمَارِي: Amari) في

(١) (ترجمة المنار) الصادر في ١٩٠٤.

كتاب: **(المسلمون في صقلية)**: أن الرَّعَايَا بها كانوا يعيشون في راحة وسرور تحت حكم المسلمين، وكانت حالهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين، الذين كانوا يرزحون تحت نَيْر اللنجورمانيين والفرغة، وأن العرب البروفنسي والإسباني ينتميان إلى الشعر العربي، الذي كان عاملاً في نهوض الشعر الوطني الإيطالي، وفي مد الأدب الإيطالي بكثير من القصص، فَكَلِمَاتُ مثل: (مُسْلِين) أي: مَوْصِلي، أو (ركامو) الركم، أي: شدة التطريز، هي كلمات مِنْ أصل عربي.

ـ يقول (آرْنَسْت: Ernest): «إِنَّ حُبَّ العِلْم والكمال قد حَقَّقَ في القرن العاشر في تلك البُقْعة الممتازة من العالم[١] تَسَامُحاً ليس في وُسْعِ العصور المدنية أن يوجد ما هو أَعْظَم منه».

فإن **المسيحيين واليهود والمسلمين** كانوا يتعلمون لغة واحدة، ويتغَنَّون بأغانٍ شعرية واحدة.

---

(١) يقصد الأندلس.

ويَدْرُسُونَ معاً دُرُوساً واحدة في الآداب والعلوم، لقد سقَطَتْ جميعُ الحواجز التي تَفْصِل النَّاس بعضهم عن بعض، فكانوا جميعاً مُتَضَامِنِين في العمل على خير المدنية الْمُشْتَرَك؛ وأصبح **جامع قُرْطُبَة** ـ حيث كان طلبة العلم يُعَدُّون بالألوف ـ مَرْكَزاً حيًّا للدروس الفلسفية والعلمية».

ـ ونَصَّ الإمام الْقَرَافِي على **(حقوق أهل الذمة)** في الإسلام؛ فقال: «إنَّ مِنْ وَاجِبِ الْمُسْلمين لِلذِّمِّيِّين الرِّفْقَ بِضُعَفَائِهِمْ، وسَدّ خُلَّة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بِلِينِ القَوْل، واحتمال أذى الجار منهم، مع القدرة على الدَّفع، وإخلاص النُّصْح لهم في جميع أمورهم».

ـ ويَشْهَدُ الكابتان غوردون كانتج بخصوص شأن الأقليات غير المسلمة في الديار الإسلامية، قائلاً: «إنها كانت تُعَامَلُ على الدوام، خير معاملة في البلدان الإسلامية، إلى أن تَأْتِيَ دولة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لِقَلْبِ الحالة، كما حَدَثَ في مسألة الأَرْمَن، والأَتْرَاك.

وإن زُعَماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائماً يعملون على تلافي هذا التنافر، وإصلاح ذات البَيْن؛ وإذا كان التَّعَصُّب قد أخذ مجراه في زمن من الأَزْمِنة، فقد كان المسلمون على مذهب الحاكم، ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين».

ـ ويُصَرِّحُ رِيتْشَارْد وُود: (القُنْصُل الإنجليزي في دمشق) مُعَلِّقاً على **مجازر الموارنة والدروز** في تَقْرِيرٍ رَفَعَهُ إلى دولته في عام ١٨٧٨م، يقول: «إن الذي يبحث بحثاً دقيقاً في أسباب الفتن التي سُفِكَتْ فيها الدماء في المشرق، يَعْلَم أن الباعث الوحيد على حدوثها، هو إصبع السياسة الأجنبية، التي تنتهز الفُرَصَ لإيقاد نار الفتنة بين ذَوِي الأحقاد؛ ومن هذا القبيل: واقِعَة **الدُّروز، والموارنة**، وواقعة **الصقالبة، والبُلْغَاريين**، فقد تَبَيَّنَ أَنَّ الاعتداء يبتدئ من جانب النصارى».

ـ ويشهد الدكتور تريتون في كتابه **(الإسلام**:

مُعْتَقَداتُه وطُقُوسُه): «أنَّ الإسلام يَنْظر إلى أَتْبَاع الأديان الأخرى بِتَسَامُح ورِفْق؛ ففي العصور الوسطى كان **اليهود** سُعَدَاء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين **النصارى**».

يقول هورتن الألماني: «لا تجد في الإسلام سَدًّا يمنع نفوذ الثقافة الغربية عنه، بل تَرَى له استعداداً غير محدود لقبول الثقافة، ولا شك أن قبول الإسلام أيَّ ثقافة غير إسلامية لا حدود له».

وعن **فضل الإسلام**، قال:

ـ غوستاف لوبون في كتابه **(حضارة العرب)**: «العرب وحدهم، هم الذين هَدَوْنا إلى العالَم اليوناني واللاَّتِينِي القديم، وأن الجماعات الأوروبية، ومنها: جامعة باريس، عاشت مدة ستمائة سنة من ترجمات لكتبهم، وجرت على أساليبهم في البحث، وكانت المدنية الإسلامية من أدهش ما عَرَفَ التاريخ».

ـ وقَالَ سبنسر فاميري: «لا يستطيع عالِمٌ واحد

أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربياً، ولا يستطيع عالِم طبيعي أن يُحَلِّلَ ورَقَةَ من الشجر، أو يَفْحَصَ صَخْرَةَ مِنَ الصُخُور دون أن يتذكر درساً عربياً، ولا يَقْدِرُ أَيُّ قَاضٍ أن يَبُتَّ اليَوْمَ في اخْتِلافٍ دون أن يَسْتدعي مبْدَأً أَمْلَتْه العرب؛ ولا يسع أي طبيب أن يتأمَل دائِرَةَ أَحَدِ الأَمْرَاضِ الْمَعْرُوفَة مُنْذ القدم، إلاَّ أَنْ يَهْمِسَ بآرَاءِ طَبِيبٍ عَرَبِيٍّ؛ ولا يستطيع أَيُّ رَحَّالَةٍ أنْ يُذْلِفَ إِلَى أَبْعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يَعْمَدَ إلى **اللغة العربية**، فإنَّ **انتشارها** قد بلغ من الذيوع والسعة، بِحَيْثُ أَنَّ البَعْضَ [ذَهَبَ] ـ مبالغة ـ إِلى أَنَّ خُمُسَ شعوب الكرة الأرضية يتكلمون العربية، ويؤكد أيضاً أنَ أيَّ لغةٍ أُخْرَى لا تَتَكَلَّم بها شُعُوب، بلغ اختلاف أجناسها وتَبَايُنِها، مبلغ المتكلمين باللغة العربية».

ـ ومِن مظاهر فضل الأندلس على الغَرْب: مدرسة **طُلَيْطِلَة** في القرن الحادي عشر، التي تَلَقَّى منها العربية المستشرق سكوت (رئيس مكتبة فردريك الثاني)؛ ومن مدرسة **إِشْبِيلِيَة** تَخَرَّجَ كبار العلماء

الغَرْبِيّين في عام ١٢٠٤م؛ وبقيت العربية لغةَ الثقافة والمعاملات حتى عام ١٥٨٠م؛ وظَلَّتْ بَعْض قُرَى بَلَنْسِيَة تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر[1].

ومن آثار المسلمين في **فرنسا**: مدرسة الطِّب في (**مُونْبِلْيِيه**: Montpellier) سنة ١٢٢٠م؛ ومن هذه المدينة نُشِرَت ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية؛ وكذلك انتشرت فلسفة **ابن رُشْد وابن سِينَا والرَّازِي** إلى جامعات **لومْبَرْدِي، وسُويسْرا، ولوفان**.

وكان **بطُلَيْطِلَة** أكبرَ مركز للترجمة عن العربية منذ أوائل القرن الحادي عشر، حتّى أصبح بَلاَط (ألفونس السادس: Alphonse VI) مفتاحَ الثقافة الإسلامية لأوروبا، وبه ظهر روبرت أول إنجليزي مترجم لمعاني القرآن الكريم.

وكانت أول مدرسة للترجمة **بطُلَيْطِلَة** في عام (٥٣٠هـ /١١٣٥م) من إنشاء الأسقف ريموند الأوّل،

---

(١) نجيب العقيقي: (المستشرقون: ص٢٨/ ط.بيروت ١٩٣٨).

واستمرت حتى عام ١٤٨٢م، وجذبت إليها أساتذة الغَرْب، من أشهرهم: ميخائيل سكوت، وروبرت أوف جستر، وألفونس الحكيم.

وأُنْشِئت أول مدرسة للدراسات الشرقية في **طُلَيْطِلَة** عام ١٢٥٠م لِتُدَرِّس الفلسفة الإسلامية، والفقه الإسلامي؛ يقول روجر بيكون: «إنَّ الفلسفة أُخِذت عن العرب، وإن كتابات (أرسطو: Aristote) لم تُفْهَم، ولم تَلْقَ رواجاً في الغَرْب، حتى أوضحتها كتابات ابن رشد وابن سينا.

وتُرْجِمت تعليقات لابن رشد مع أرسطو، ولاقت رواجاً، حتى صارت تُهَدِّدُ الكنيسة؛ وتُرْجِمَتْ كُتُب الكِنْدِي وابن عربي والغزالي».

وتأثَّر الغربيّون بهم، فتَشَيَّع بَعْضُهم لهذا وبعضهم لذاك، ومن هؤلاء: (توماس أكوناياس: Thomas Aquinas) الكاثوليكي تأثَّر بأقوال الغزالي؛ وكان مِنْ أَثَرِ ابْنِ رُشْد أنْ أثار جدلاً وحركة فكرية داما حتى القرن السادس عشر، وساعدا على إنشاء العلم التجريبي الحديث.

أما (الراهب جربرت سلفستر الثاني: Archevêque Gerbert Sylvestre II) الفرنسي، فقد هاجر إلى إشْبِيلِية ثم قُرْطبة طلباً للعلم، وعكف على دراسة التَّشْرِيع الإسلامي؛ وحين انْتُخِبَ حَبْراً أعظم عام ٩٩٩م طَعَّمَ الفِقْهَ الرومانيّ بدراسة الفقه الإسلامي.

* * *

إنَّ قَوَامِيسَ اللُّغَاتِ الأُوروبية تَزْخَرُ بالكلمات العربية، سواء ما تعلق منها بالحاجات اليومية، كالأطعمة، والألبسة، والعقاقير؛ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالْمِلاحة وفنونِها واصطلاحاتِها؛ وأخذ الغَرْب عن العرب فكرة البريد؛ ونقلوا أيضاً كثيراً من فنون الزراعة.

ـ ومما يعود بالفضل الأكبر في تَعَرُّفِ الغَرْب على الأرْقام العربية إلى الخَوَارِزْمي؛ الذي نُقِلَتْ كُتُبُه جميعاً إلى اللاتينية، فكانت مَرْجِعاً هاماً للعلماء الغَرْبيين. يقول (سارطون: Sarton): «لقد بلغ

المسلمون ما يجوز تسميته بـ«**معجزة**» العلم العربي؛ وقد أورَدْتُ كلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم، مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق».

ـ ويقول شيرل (عميد كلية الحقوق في فيينّا): «إنّ محمداً الذي تفتخر البشرية بالانتساب إليه، استطاع أن يأتي قبل بضعة عشر قرناً بـ«**تَشْرِيع**»، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام».

ـ وهناك كُتُبٌ عديدة في «**الميكانيك**» الذي سَمَّوْه: «**علم الحِيَل**»؛ وفي «**الأيدروستاتيك** [Hydrostatique]» أي: علم «موازنة السوائل وضغطها» على جدران أوعيتها؛ ونظريات الضوء والإبصار.

وقد اكتشف الحسن بن الْهَيْثَم الشكل الْمُنْحَني الذي يأخذه الشعاع في سَيْرِه في الجو، وأثبت بذلك أننا نرى كواكب قد تكون اندثرت، ولم يبقَ منها إلا ضوؤها.

بل إنَّ مذهب «النشوء والارتقاء» للكائنات العضوية، كان يُدَرَّس في مدارسهم.

ولـ(كارلو ألفونسو نالينو: Carlo Alfonso Nallino) محاضرات في «علم الفلك عند العرب» ألقاها بِرُومَا في عام ١٩١١م، بعد تحقيقه لكتاب أبي عبدالله الحرّاني البطّاني «الزيج الصابئ»[١].

ـ وكان في بغداد من الجامعات ما ضَمَّ ستّة آلاف طالب من مختلف الطبقات الاجتماعية، يَتَلَقَّوْنَ العلم مَجَّاناً؛ وقد أقاموا «الْمَرَاصِد» الشامخة لرصد الكواكب، وكانت تُعِيرُ الكُتُبَ لطلابها.

وفي مكتبة القاهرة: كُرَتَان أرضيتان، إحداهما: من الفضة، والأخرى: من البُرُونز، اسْتَدْعَى صُنْعَهَا ثلاثة آلاف كورون من الذهب، أي: (بالنقد اليوناني).

---

(١) لويس شيخو: علماء النصرانية في الإسلام/ ط. لبنان/ إيطاليا. المكتبة البوليسية، سلسلة التراث العربي المسيحي ١٩٨٣.

وقد شَيَّدُوا مَرَاقب، أشهرها مراقب المأمون في بغداد ودمشق؛ والعزيز والحكيم في القاهرة، ومرقب السلطان عضد الدولة في حديقته ببغداد.

ـ أما **ساعة هارون الرشيد** التي أهداها إلى (شارلُمان: Charlemagne) في عام ٨٠٧م، والتي أَذْعَرَتْهُ ظنًّا منه أن بها شيطاناً أو سِحْراً، فأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنْسَى.

ـ واكْتَشَف ابن النفيس **الدَّوْرَة الدموية الصغرى** قبل (ميخائيل سرفيت: Michael Servit) الإسباني بمائتين وخمسين عاماً.

ـ كذلك **عِلْم التَّشْرِيح**، بلغ الذروة عند العرب وخاصة تشريح العين.

ـ وغَنِيٌّ عن الذِّكْرِ، أَثَرُ العَرَبية وآدابها في الغَرْب، فَمِنْ دَانْتِي إلى (لافونتين: La Fontaine)، إلى مدام دو ستايس السويسرية على الحب العُذْرِي، والفُرُوسِيَّة، أو الرُّومَنْطِيقِيَّة.

ـ كما دعا [الإمام] الطبري إلى وُجُوب الْتِزَام

الْجِيَاد الفِكْرِي قبل الشروع في أية مسألة للبحث، وكذلك اعتماد تواتر الظاهرة، أو اعتماد الإحصائيات لإثباتها، في حين كان مُحَرَّماً عند النصارى.

ـ والمأمون نَقَلَ إلى بغداد مائة جِمْل بَعِير من الكُتُب، وقد كان أحد شروط مُعَاهدة الصُّلح بينه وبين (الإمبراطور ميشيل الثالث: Empereur Michel III) أن يعطيه إحدى مكاتب القسطنطينية التي كان بها كتاب (بطليموس: Ptolémée) في الأجرام السماوية؛ وتُرْجِم في عهده إلى العربية باسم «المجسطي». وقد بقيت مؤلفاتهم فيه تُسْتَخْدَمُ حَتَّى أيام (كوبر نيكوس: Cooper Nikos) الذي اعتمد لوائح الخوارزمي، وابن يونس، والبَتَّاني الشَّهيرة.

ـ كان جدول أسماء الكتب في مكتبة خلفاء الأندلس يبلغ أربعة وأربعين مجلداً، وكان بالأندلس سبعين مكتبة عامة، [ويُحْكَى] عن عالم عربي رَفَضَ دعوةَ سُلْطان بُخَارَى له، مُتَعَلِّلاً بِأَنَّ كُتُبَهُ لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير.

وكانت **قرطبة** تضم خمسمائة ألف نسمة؛ وبها ثلاثة آلاف مسجد؛ وثلاثمائة من الحمامات العامة؛ وعَدَدُ بيوتها مائة وثلاثة عشر ألف بيت.

ثم إنَّ **الدولة الإسلامية** بقيت سَيِّدَةَ العَالَم مُدَّةً تُنَاهِزُ ألف سنة تقريباً، أي: مُدَّةَ عُمر الدولتين: **(اليونانية)** و**(الرومانية)**. وقد سميت **غرناطة** [آنذاك] بـ**«زهرة أوروبا»**.

ـ **النَّكْبَة الإنسانية في الإسلام**: اعترف (هنري شامبون: Henri Chambon) الفرنسي بالآثار التي عادت على أوروبا، بسبب توقف الْمَدّ الإسلامي لها بعد معركة (بواتييه: Poitiers) عام **٧٣٢**م، يقول: «لولا انتصار جيش (شارل مارتال: Charles Martel) الْهَمَجِي على تقدم المسلمين في فرنسا، لما وَقَعَتْ فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولَمَا أُصِيبَتْ بِفَظَائِعها، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي، وَلَنَجَتْ إسْبَانِيَا من وصمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لَمَا تَأَخَّرَ سَيْرُ الْمَدَنِيَّةِ ثمانية قرون».

ومِثْلُهُ ما قاله (كلود فارير : Claude Farrer):

«إنه قد أَنَاخَتْ على الإنسانية بعد السبعمائة للميلاد، كَارِثَة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى، تَخَبَّطَ من جَرَّائِها العالَم الغَرْبي سبعة قرون أو ثمانية في الْهَمَجِيَّة؛ وحَسْبُ المرء أَنْ يَذْكُرَ ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا، لو أَنَّ الإسلام استطاع أن يَنْتَزِعَ وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها اسماً»[١].

ـ يقول (نيتشه: Nietzsche): «لقد حَرَمَتْنَا المسيحية ميراث العبقرية القديم، ثُمَّ حَرَمَتْنَا بعد ذلك من الإسلام، فقد دِيسَتْ بالأقدام تلك الْمَدَنية: مدنية الأندلس المغربية، فلماذا؟

لأنَّها نشأت من أصول رفيعة، وغَرَائِز شريفة، ثم من غرائز رجال تلك المدنيّة، التي لم تُنْكِرْ الحياة، بل أجابتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

لقد قاتل الصليبيون تلك المدنية، وكان أَوْلَى

(١) ترجمة محمد لطفي جمعة بالبلاغ الأسبوعي ٤ سبتمبر ١٩٢٩.

بهم أن يسجدوا على التراب ويعبدوها، وما مَدَنِيَّتُنَا في هذا القرن التاسع عشر إلا فَقِيرة وَآنِيَّة بجانب مَدَنِيَّة الإسلام في ذلك الوقت»[1].

ـ **الإسلام دين الحرية والإخاء**: دليلنا [هو] الواقع التاريخي، الذي يُورِدُ أَحْدَاثَه (الكونت كَرَادُون: Conte Caradone) الْمُتَّهِم الإسلام بالتعصب وبقيامه بِحَدِّ السَّيْف، يُورد أحداثاً وَمُتَسَائلاً [بحيث] لا يَجِد لها تَعْلِيلاً، فيقول: «لماذا قَلَبَ نصارى سوريا ظَهْرَ المِجَن لأباطرة الرومان المسيحيين، والْتَجَأُوا إلى حِمَى أَبِي عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاح المسلم، وعاونوه في الجهاد لطرد الرومانيين من الديار السورية؟».

ـ **صِلَة الإسلام بالسيف**: كان انتشار الإسلام انتشاراً طبيعياً، ذلك أن المسلمين كانوا قدوة حسنة لسائر جيرانهم، فَلَحِقُوا بهم في دينهم، وحَذَوْا حِذْوَهُمْ في إِيمانهم.

---

(١) عن مجلة المستقبل ١٩١٤.

ـ **شهادات وافية**: يرى (آينشتاين: Einsctein) أن عظمة الإسلام تتركز في عوامل ثلاثة:

- **أنه أحدث الأديان.**

- **وأنه لم يخاصم العلم.**

- **وأنه يستطيع أن يعالج أزمات العالم الحاضر.**

ويشهد الرهبان أن أهل الكتاب كانوا يُعَامَلُون معاملة طيبة في [ظِلِّ] الإسلام، حتى أثناء الحروب ضِدَّهُم، وأنهم كانوا أحراراً في عبادتهم.

ـ **الإسلام قابل الحضارات**: يقول (هورتن: Horten) الألماني: «لا نجد في الإسلام سداً يمنع من نُفُوذ الثقافات الغربية إليه، بل نرى له استعداداً لقبول الثقافة لا حد له».

ـ **صلة الدين بالعلم**:

- **«طلب العلم فريضة على كل مسلم».**

● «أفضل الناس المؤمن العالم».

● «من سلك طريقاً يطلب به علماً سَهَّلَ الله له به طريقاً إلى الجنة».

● «يُوزَنُ مداد العلماء يوم القيامة بدماء الشهداء، ويرفع فضل العلم على فضل العبادة».

وهو القائل ـ أي: هورتن ـ: «لقد كان إيمان ابن رشد ـ (الفيلسوف) ـ بالله عظيماً، وكان معتصماً بالقرآن، وبكل كلمة في القرآن، ومع ذلك لم يمنعه دِينُه والقرآن الذي يعتصم به، من مطابقة الفلسفة اليونانية، والأخذ من آثار أَرِسْطُو، والبناء عليها».

ثم إنه لم يكن ممكناً أن يقع مثل حادث (غَالِيلِيه: Galilée) لَدَيْنَا، فَيُهَدَّدُ بالحرق إن اكتشف شيئاً.

يقول (رينيه ميليه: René Milier): «لقد جاء المسلمون بِمَبْدَإٍ في البحث جديد: مَبْدَإٍ يَتَفَرَّعُ عن الدين نفسه، هو مبدأ التَّأَمُّل والبحث... والعَرَب لا الإغريق هم أساتذة الرياضيات في عصر النهضة،

ويكفي أن نذكر هنا: مؤلفات (البيروني)، و(ابن سينا)، و(عمر الْخَيَّام) الذي رفع الْجَبْر إلى قِمَّةٍ، لم يَتَمَكَّن أحد من الارتقاء إليها حتى (ديكارت: Descartes) الفرنسي في القرن السابع عشر.

وكان **العَرَب** أوَّل من استخدم (**الفاصلة** [Virgule]) للإشارة إلى الكسور؛ كما أَسَّسُوا عِلْمَ الْمُثَلَّثَات، والحساب السِّتِّينِي، وقَسَّمُوا الدائرة إلى ١٤٠ درجة، ووضعوا الحساب التَّفَاصِيلِي الذي أَسَّسَه ابن سينا... وفي **الطب** مَارَسُوا (**التلقيح ضِدَ الْجُدَرِي**)[١] حتى قبل الإسلام... و(**ابن النفيس**) و[اكتشافه] دورة (**الدم الصغرى**) قبل (وِلْيَمْ هَارْفِي: William Harvey) الإنجليزي بأربعمائة عام... [كما أنه] هو أوّل من لجأ إلى (**التَّخْدير العام**) قبل الشروع في العمليات الجراحية؛ كما كانوا يستعملون (**التَّعْقِيم**) بواسطة (**الكَمَّادات الحارة**)... ويُطَبِّقُون طريقة **المعالجة** بـ(**المضادات الحيوية**)».

---

(١) الْجُدَرِي: Vaccin contre le colérats.

يقول (**جيمس برستد**: James Breasted): «إن العصر الإسلامي في **إسبانيا** كان أكبر عامل من عوامل المدنية في **أوروبا**، وإنَّ انْخِذَال المسلمين في **إسبانيا** كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية».

- **التنوير**: **نحن والغَرْب**: إن فرنسا لم تعرف حقوق الإنسان إلا منذ بَدْءِ ثَوْرتها، وقد عَرَفْنَاهَا قبلها بألف عام، وكذلك فِكْرَة (**الْمُسَاواة**)، و(**الديمقراطية**)، و(**الاشتراكية**).

بينما سبقهم الإسلام إلى المساواة بين المسلم وغيره؛ وحَرَّمَ الخمور، وسَبَقَ أوروبا في مجال القانون، وحَثَّ على النَّظافة، وعلى حسن التَّعَامُل بين الناس، وعلى الفُرُوسية.

خاتمة

الحَلُّ في شريعتنا الإسلامية

ـ كتب كتشنر قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى قائلاً: «إن **الدولة العثمانية** لا تصلح بالقوانين التي تقتبسها منا [نحن] الأوروبيين؛ حيث لم تصلح لنا هذه القوانين إلا بعد تربية تدريجية في عدة قرون، كنا نُغَيِّرُ منها ونُبَدِّل بحسب اختلاف الأحوال، وإِنَّ عندكم **شريعة** عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية؛ فالواجب على الدولة أن تعمل بها، وتترك قوانين أوروبا، فَتُقِيمَ العدل، وتحفظ الأَمْن؛ وعندي أنها لا تَصْلُحُ بغير هذا».

ـ ويقول الشاعر الألماني جوته: «إن التشريع في الْغَرْب ناقص على الرغم مِنْ تَقَدُّمِهِ، وناقص

بالنسبة للتَّعَالِيم الإسلامية؛ وإِنَّنَا أَهْل أوروبا بجميع مفاهيمنا لم نصل بَعْدُ إلى ما وصل إليه **محمد**، وسوف لا يتقدم عليه أحد».

- ويقول توينبي في [كتاب] (**الحضارة في فترة اختبار**): «إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام، هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العَالَم، وإِنَّ في بقاء الإسلام أَمَلاً للعَالَم كُلّه».

- ويقول جورج برنارد شو في بحثه «**الإسلام بعد مائة عام**»: «**الإسلام** هو الذي نجد فيه حسنات الأديان كلها، ولا نجد في الأديان حسناته».

- ويقول جورج سارتون في (الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين): «إن المسلمين يُمْكِن أن يَعُودُوا إلى عظمتهم الماضية، وإلى زعامة العالَم السياسية والعلمية، كما كانوا مِنْ قَبْلُ إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام، والعلوم التي حَثَّ الإسلام على الأخذ بها؛ وإِنَّ تلك الهزائم السياسية التي مُنِيَ بها الإسلام لم تُزَعْزِعْ ثقة المسلمين

بأنفسهم، بل على العكس زادت من إيمانهم».

- ويقول لُوبُون LEBON: «إِنَّ سَبَبَ انحطاط الشرق هو تَرْكُهُ رُوحَ الدِّين، وتَشَبُّثُه بالعقائد الباطلة؛ فإِنَّ قوة الدين قوة أدبية لا يُستهان بها؛ ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر، وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة، وعاداتكم الْمَرْضِيَّة؛ وعلى الطُّلاَّب الذين يأتون إلى أوروبا أن يَجْنُوا من العلوم والأفكار ما ينفع وطنهم ويوافق أخلاقهم... إِنَّ الشَّعْب الذي يريد الرُّقِيَّ يجب ألا يقطع الصلة التي تربطه بالماضي».

- ويقول **برنارد شو**: (B. Show): «أنا على يقين من أَنَّ **(دين محمد)** سيكون دين أوروبا في غد، كما أنه قد أخذ الأوروبيون يَقْبَلُونه من اليوم».

- ويقول م. ر. كويت في [كتابه]: «**الإسلام والدولة البريطانية**»: «إن الكثيرين مِنَّا شَابُوا على كراهية الإسلام، وارتضعوا ذلك مع لِبَانِ أمهاتهم؛ هذا فضلاً عن أَنَّ ما لَدَيْنَا من المعلومات عن

الإسلام يزيد في بُعْدِنَا عن معرفة حَقِيقَتِه، خصوصاً لعدم إمكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية»[1].

فَلْنَسْتَبْشِرِ خَيراً مَهمَا كان،
فكل أَمْرِ المسلم خَير...
وقُدْرَة الإسلام على النهوض
لا يَشُكُّ فيها بصير.

(١) (مجلة الفتح عدد سنة ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨م).

الفهارس العامة

- قائمة بأسماء الأعلام الغَرْبية.
- قائمة بتراجم أهم الأعلام.
- قائمة المصادر.
- فهرس الكتاب.

أسماء الأعلام الغربية الواردة

تراجم بأهم الأعلام[1]

١ ـ **طارق بن زياد**: (ت١٠٢هـ/٧٢٠م)، فاتح الأندلس. أسلم على يد موسى بن نُصَيْر، فكان من أشد رجاله. ولما تم لموسى فتح طنجة، ولى عليها طارقاً سنة ٨٩هـ، فأقام فيها إلى أوائل سنة ٩٢هـ. فجهز موسى نحو ١٢٠٠٠ معظمهم من البربر، لغزو الأندلس، وولى طارقاً قيادتهم، فنزل بهم البحر، واستولى على الجبل (جبل طارق) وفتح حصن قرطاجنة، وتغلغل في أرض الأندلس، بعد أن أحرق السفن التي جاء عليها بجيشه، واستولى على عدة مدن، منها: مدينة سالم (Medina Celi) التي يقال: إن طارقاً عثر فيها على مائدة سليمان. ثم استدعاه الوليد إلى الشام، فقصدها مع موسى سنة ٩٦هـ/٧١٤م.

---

(١) هذه التراجم مأخوذة من كتاب (الأعلام) للزركلي رحمه الله، بتصرف قليل.

٢ ـ **أبو الطيب المتنبي**: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة، والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة. ولد بالكوفة في محلة تُسَمَّى (كندة) وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبياً.

٣ ـ **أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي: (٥١١ ـ ٥٦٩هـ /١١١٨ ـ ١١٧٤م)** الملقب بالملك العادل: ملك الشام، وديار الجزيرة، ومصر. وهو أعدل ملوك زمانه، وأجلّهم، وأفضلهم. ولد في حلب وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه (٥٤١هـ). وكان معتنياً بمصالح رعيته، مداوماً للجهاد، يباشر القتال بنفسه، موفقاً في حروبه مع الصليبيين، أيام زحفهم على بلاد الشام. وبنى مدارس كثيرة.

٤ ـ **صلاح الدين الأيوبي: (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ /١١٣٧ ـ ١١٩٣م)** يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام. نشأ في دمشق، وتفقه وتأدب، ورَوَى الحديث بها وبمصر والإسكندرية، وحَدَّث في القدس. ودخل مع أبيه (نجم الدين) وعمه (شيركوه) في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي.

٥ ـ **الظاهر بيبرس (٦٢٥ ـ ٦٧٦هـ /١٢٢٨ ـ ١٢٧٧م)**، العلائي البندقداري الصالحي، رُكْنُ الدين، الملك الظاهر: صاحب الفتوحات، والأخبار والآثار.

مولده بأرض القبچاق. وأُسِر فَبِيعَ في سيواس، ثم نُقِل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة.

فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البَنْدَقْدَار، وبقي عنده، فلما قَبَضَ عليه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) أخذ بيبرس، فجعله في خاصة خدمه، ثم أعتقه.

ولم تزل همته تصعد به حتى كان (أتابك) العساكر بمصر، في أيام الملك (المظفر) قطز، وقاتل معه التتار في فلسطين.

ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز، فقتلوه، وتولى (بيبرس) سلطنة مصر والشام (سنة ٦٥٨هـ) وتَلَقَّبَ بالملك (القاهر): أبي الفتوحات، ثم ترك هذا اللقب، وتلقب بالملك (الظاهر). وكان شجاعاً جباراً، يباشر الحروب بنفسه. وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج (الصليبيين)، وله الفتوحات العظيمة. وفي أيامه انتقلت (الخلافة) إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ. وآثاره وعمائره وأخباره كثيرة جداً. توفي في دمشق، ومَرْقَدُهُ فيها معروف، وأقيمت حوله (المكتبة الظاهرية).

٦ ـ الملك الناصر: (٧١٦ ـ ٧٤٥هـ/ ١٣١٦ ـ ١٣٤٤م)

أحمد بن محمد بن قَلاَوُون، شِهَاب الدين، الملك الناصر ابن الملك الناصر، من ملوك الدولة القَلاَوُونِيَّة بمصر والشام. وُلِدَ بالقاهرة، وأرسله أبوه إلى الكَرَك

ليتعلم الفُرُوسِيَّة. وتولى السَّلْطَنة سنة ٧٤٢هـ بعد خَلْع الأشرف، فانتقل إلى القاهرة، وتَلَقَّبَ بِلَقَب أبيه (النَّاصر).

٧ ـ **مصطفى السباعي**: (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤هـ /١٩١٥ ـ ١٩٦٧م) مصطفى بن حسني، أبو حسان السباعي: عالم إسلامي، مجاهد، من خطباء الكتاب. ولد بحمص (في سوريا) وتعلم بها وبالأزهر، واعتقله الإنكليز في مصر وفلسطين ستة أشهر، وأسلموه إلى الفرنسيين فسجنوه في لبنان ٣٠ شهراً.

وانطلق فكان على رأس كتيبة من (الإخوان المسلمين) في الدفاع عن بيت المقدس (١٩٤٨)، وأحرز شهادة (دكتور في التشريع الإسلامي وتاريخه) من الأزهر (١٩٤٩)، واستقر في دمشق؛ أستاذاً بكلية الحقوق (١٩٥٠)، ومراقباً عاماً لجمعية الإخوان المسلمين، وعميداً لكلية الشريعة (١٩٥٥)، وقام برحلات، وأنشأ مجلة **(حضارة الإسلام)**.

أصيب بشلل نصفي عام (١٩٥٧م)، ونشر من تآليفه ٢١ كتاباً ورسالة، منها: (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وهو كتاب أطروحته، و(اشتراكية الإسلام)، و(شرح قانون الأحوال الشخصية) ثلاثة أجزاء، و(الدين والدولة في الإسلام)، و(المرأة بين الفقه والقانون)، و(منهجنا في الإصلاح). وهيأ للنشر سبعة، منها: (السيرة النبويَّة، تاريخها ودروسها)،

و(النظام الاجتماعي في الإسلام)، و(العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ). توفي بدمشق.

٨ - **الزبير بن العوام:** (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ/ ٥٩٤ - ٦٥٦م)
الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبدالله: الصحابي الشجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفه في الإسلام. وهو ابن عمة النبيّ ﷺ. أسلم وله ١٢ سنة.

وشهد بدراً وأحداً وغيرهما. وكان على بعض الكراديس في اليرموك. وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب.

قالوا: كان في صدر ابن الزبير أمثال العيون من الطعن والرمي.

وجعله عمر في من يَصْلُح للخلافة بعده. وكان موسراً، كثير المتاجر، خلَّف أملاكاً بيعت بنحو أربعين مليون درهم. وكان طويلاً جداً إذا ركب تخط رجلاه الأرض.

قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل، بوادي السباع (على ٧ فراسخ من البصرة)، وكان خفيف اللحية، أسمر اللون، كثير الشعر. له ٣٨ حديثاً.

٩ - **محمد كرد علي:** (١٢٩٣ - ١٣٧٢هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٥٣م) محمد بن عبدالرزاق بن محمد، كرد علي: رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة (المقتبس) والمؤلفات الكثيرة. وأحد

كبار الكتّاب. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل)، ومولده ووفاته في دمشق.

تعلم في المدرسة (الرشدية) الاستعدادية. وتوفي والده، وهو في الثانية عشرة من عمره، فابتدأ حياته الاستقلالية صغيراً.

وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، فأحسن التركية والفرنسية، وتذوق الفارسية.

وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري، ثم كانت مفردات المقامات، تضايقه حين يكتب.

وتولى تحرير جريدة (الشام) الأسبوعية الحكومية، سنة ١٣١٥ ـ ١٣١٨هـ، وكان يلتزم بها السجع في مقالاته. ووالى الكتابة في مجلة المقتطف خمس سنوات، ابتدأت بها شهرته. وزار مصر (سنة ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م) فتولى تحرير جريدة الرائد المصري عشرة شهور، وعاد إلى دمشق. ورفعت إلى واليها التركي وشاية به ففتش بيته، وظهرت براءته.

وهاجر إلى مصر، فأنشأ مجلة (المقتبس) (سنة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م)، وقام بتحرير جريدة (الظاهر)، ثم التحرير في (المؤيد) اليوميتين.

وعاد بعد الدستور العثماني (سنة ١٩٠٨م) إلى دمشق، فتابع إصدار مجلة (المقتبس) وأضاف إليها باسمها جريدة يومية كانت قبل الحرب العالمية الأولى مسرحاً لأقلام كبار الكتاب، وناوأت دعاة الرجعية وحاربت

جمعية (الاتحاد والترقي) التي كان يستتر وراءها حزب (تركيا الفتاة) العامل على تتريك العناصر العثمانية.

واتهمه أحد ولاة الترك بالتعرض للعائلة السلطانية، في إحدى مقالاته، ففر إلى مصر فأوروبا، وعاد مبرأ. وتكرر ذلك في تهمة أخرى، فترك الجريدة اليومية إلى أخيه (أحمد) أبي بسام، وانقطع للمجلة.

واشتد جزعه بعد إعلان الحرب العالمية الأولى وابتداء حملة الانتقام التركية من أحرار العرب، فأقفل الجريدة والمجلة، وكان يساق مع إخوانه شكري العسلي وعبدالوهاب الإنكليزي ورشدي الشمعة ـ انظر تراجمهم ـ وسواهم، من نَقَدة نظام الحكم العثماني، ودعاة التحرر، إلا أنه أنقذته (خلاصة حديث) وجدت في القنصلية الفرنسية، بدمشق، كتبها أحد موظفي الخارجية الفرنسية، قبل الحرب، وكان قد زار صاحب الترجمة في بيته وأراد استغلال نقمته على (الاتحاديين) ليصرفه إلى موالاة السياسة الفرنسية في الشرق، فخيب كرد علي ظنه، ونصحه بتبديل سياستهم في الجزائر وتونس، ومثلها (نشرة رسمية سرية) كان قد بعث بها سفير فرنسا في الآستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية، يحذرهم بها من كرد علي ويقول: إنه لا يسير إلا مع الأتراك، وأوراق أخرى من هذا النوع أظهرها تفتيش القنصليات في أوائل الحرب، فدعاه أحمد جمال باشا (القائد الطاغية التركي) إليه،

مستبشراً، وأعلمه بها، وأنذره إن عاد إلى المعارضة ليقتلنه هو بيده، بمسدسه (أخبرني بذلك يوم حدوثه) وأمره بإعادة الجريدة، ومنحه مساعدة مالية، فأعادها، ثم ولاه تحرير جريدة (الشرق) التي أصدرها الجيش.

وأمضى مدة الحرب مصانعاً بلسانه وقلمه، وظل يخشى شبح (جمال) حتى بعد الحرب.

وفي (مذكراته) ما يدل على بقاء أثر من هذا في نفسه إلى آخر أيامه.

وانقطع إلى المجمع العلمي العربي، بعد إنشائه بدمشق (سنة ١٩١٩) أيام الحكومة العربية الأولى، فكان عمله فيه بعد ذلك أبرز ما قام به في حياته.

ووَلِيَ وزارة المعارف مرتين في عهد الاحتلال الفرنسي.

وكان ينحو في كثير مما يكتبه منحى ابن خلدون في مقدمته. من مؤلفاته: (مجلة المقتبس) ثمانية مجلدات وجزءان، و(خطط الشام ـ ط) ستة مجلدات، استخرجه من نحو ٤٠٠ كتاب، و(تاريخ الحضارة ـ ط) جزءان، ترجمه عن الفرنسية، والأصل لشارل سنيوبوس، و(غرائب الغرب ـ ط) مجلدان، و(أقوالنا وأفعالنا ـ ط)، و(دمشق مدينة السحر والشعر ـ ط)، و(غابر الأندلس وحاضرها ـ ط)، و(أمراء البيان ـ ط) جزءان، و(الإسلام والحضارة العربية ـ ط) مجلدان، وهو أجلّ كتبه، و(القديم والحديث ـ ط) منتقيات من

مقالاته، و(كنوز الأجداد ـ ط) في سير بعض الأعلام، و(الإدارة الإسلامية في عز العرب ـ ط)، و(غوطة دمشق ـ ط)، و(المذكرات ـ ط) أربعة أجزاء، كتب بعضها وقد تقدمت به السن، فلم تَخْلُ من اضطراب في أحكامه على الناس والحوادث.

أضف إلى هذا؛ أن حياته السياسية وقفت عند إعلان الحرب العالمية الأولى، فقد انصرف بعدها عن المغامرات، فلم يدخل جمعية، ولم يعمل في حزب معارض، فابتعد عن روح الجمهور، وتتبع خفايا الأمور.

أما حياته العلمية؛ فكانت سلسلة متصلة الحلقات من بدء نشوئه واتصاله بالشيخ (طاهر الجزائري) إلى يوم وفاته.

(وكان مِنْ أضفَى الناس سريرة، وأطيبهم لِمَن أحب عِشْرَة، وأحفظهم وداً.

مما كتبه في وصف نفسه: (خُلقت عصبي المزاج دمويه، محباً للطرب والأنس والدعابة، أعشق النظام وأحب الحرية والصراحة، وأكره الفوضى، وأتألم للظلم، وأحارب التعصب، وأمقت الرياء).

١٠ ـ (لُـــــورَانْـــــس: Lawrance/Laurence): (١٣٠٥ ـ ١٣٥٤هـ /١٨٨٨ ـ ١٩٣٥م) توماس إدوارد لورانس: مغامر من رجال الاستخبارات البريطانية، اقترن اسمه بأحداث من تاريخ العرب الحديث.

ولد في تربمبادوك من قرى وايلز، في إنكلترة وتخرج بجامعة أكسفورد.

وسافر إلى سوريا وفلسطين لدراسات أثرية وأقام مدة في جبيل بلبنان، تعلم بها مبادئ العربية قبل سنة ١٩١١م.

وأرسلته حكومته في بعثة إلى صحراء سيناء، فكتب دليلاً لها، لاستعمال الجنود. ونقل إلى مكتب المخابرات العسكرية في القاهرة.

ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز عيِّن ضابط اتصال بين السلطات البريطانية والقوات العربية.

ورافق فيصل بن الحسين مدة سنتين ونصف.

وفي أثناء هذه المدة سار الجيش العربي من ميناء جدة على البحر الأحمر حتى دخل دمشق (في ٣٠ سبتمبر ١٩١٨)، وسافر فيصل لحضور مؤتمر الصلح (سنة ١٩١٩) فلازمه لورانس.

وأرسلته حكومته إلى جدة (١٩٢١) لعقد معاهدة مع الملك حسين فامتنع الحسين عن توقيعها.

وجاء لورانس إلى عمان نائباً عن فلبي في رئاسة المعتمدين البريطانيين، وبعد شهرين ونصف الشهر انصرف إلى بلاده واعتزل السياسة.

وأُرسِل إلى الهند جندياً عادياً باسم (الجندي الطيار ت.أ.شو)، ثم إلى كراتشي، وأعيد إلى بريطانيا.

وترك الخدمة العسكرية سنة ١٩٣٥، وبعد أيام كان

يقود دراجته النارية وسقط في خندق، فمات بعد ستة أيام.

ودفن في مقبرة (مورتيون) على أميال من مسكنه.

أشهر آثاره: (أعمدة الحكمة السبعة ـ ط) بالإنكليزية ترجم إلى العربية، و(الثورة العربية ـ ط) ترجمه عن الإنكليزية عبد المسيح وزير.

١١ ـ دوزي: (Pieter Anne, Dozy) (١٢٣٥ ـ ١٣٠٠هـ/ ١٨٢٠ ـ ١٨٨٣م) مستشرق هولندي، من أصل فرنسي[١] بروتستانتي المذهب. هاجر أسلافه من فرنسا إلى هولندة في منتصف القرن السابع عشر.

مولده ووفاته في ليدن. درس في جامعتها نحو ثلاثين عاماً. وكان من أعضاء عدة مجامع علمية.

قرأ الآداب الهولندية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية، وتعلم البرتغالية ثم الإسبانية فالعربية. وانصرفت عنايته إلى الأخيرة، فاطَّلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. أشهر آثاره: (معجم دوزي ـ ط) في مجلدين كبيرين بالعربية والفرنسية، اسمه (Supplement aux Dictionnaires Arabes) ملحق بالمعاجم العربية) ذكر فيه ما لم يجد له ذكراً فيها.

---

(١) كان أسلافه يسمون آل أوزي d, Ozy وأدمجت أداة الإضافة الفرنسية (d) في الاسم عند انتقالهم إلى هولندة فأصبح الاسم (دوزي).

وله: (كلام كتاب العرب في دولة العباديين ـ ط) ثلاثة أجزاء، بالألمانية، (تاريخ المسلمين في إسبانية) ترجم كامل الكيلاني فصولاً منه إلى العربية في كتاب (ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ـ ط)، وله: (الألقاظ الإسبانية).

١٢ ـ فنسنك: (١٢٩٩ ـ ١٣٥٨هـ /١٨٨٢ ـ ١٩٣٩م) أرند جان فنسنك Arned Jan Wensinck مستشرق هولندي.

كان أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن من سنة ١٩٧٢ إلى وفاته.

وقام برحلات إلى مصر وسورية وغيرهما من بلاد العرب.

وانصرف إلى العناية بالحديث النبوي، فوضع بالإنكليزية معجماً للألفاظ الواردة في أربعة عشر كتاباً من كتب السنن والسيرة، نقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي وسماه (مفتاح كنوز السنَّة ـ ط)، وتولى فنسنك تحرير (دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٢٥م، بلغاتها الثلاث)، فأتم منها أربعة مجلدات وخمس ملازم.

وكتب مقالات كثيرة في مجلات مختلفة.

وله كتب بالإنكليزية عن الإسلام والمسلمين. وبدأ بنشر (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبويّ ـ ط) بالعربية وتوفي قبل إتمامه.

ولا يزال بعض فضلاء المستشرقين يوالون العمل فيه تحقيقاً وطبعاً[١].

١٣ ـ كراتشكوفسكي: (١٣٠٠ ـ ١٣٧٠هـ/ ١٨٨٣ ـ ١٩٥١م) إغناطيوس جوليانوفتش كراتشكوفسكي: I.J.Kratchkovsky مستشرق روسي، من كبارهم.

ولد في (فيلنا: Vilna) عاصمة ليتوانيا القديمة[٢]. وانتقل أبوه إلى طاشقند، وعمره سنتان، فكان أول ما تفتح عليه بصره المساجد والأسواق الشرقية، وتعلم اللغة الأزبكية وهو طفل، وعاد مع أبيه إلى فيلنا سنة ١٨٨٨ فتعلم بها ثم في معهد اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج (لينينغراد) حيث عكف على دراسة العربية والفارسية والتركية والتتارية والعبرية والحبشية القديمة.

وأرسل في بعثة علمية إلى الشرق العربي فأقام عامين (١٩٠٨ ـ ١٩١٠) في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر. ولما عاد إلى بلاده عيِّن مديراً لمكتبة فرع اللغات

---

(١) Gregoire 403 في ترجمة أبيه (جان جاك)، وآداب شيخو ٢: ٥٤، وتاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ٢٨، والمستشرقون ٤٧.

(٢) من هو في سوريا ٢: ٥٧ ـ ٥٩، ومجلة المجمع العلمي العربي: المجلدات ٢٣، ٢٤، ٣٢، وجريدة الأيام، دمشق ٢٨ حزيران ١٩٥٧، والمكتبة: عدد نيسان ١٩٦٢، ومعجم المؤلفين العراقيين ١: ١٢٣.

الشرقية في كلية لينينغراد، فمدرساً للعربية في الكلية.
وجعل من أعضاء أكاديمية العلوم الروسية في قسم التاريخ واللغات سنة ١٩٢١، وانتخبه المجمع العلمي العربي في دمشق عضواً مراسلاً سنة ١٩٢٣، وتوفي في لينينغراد.

من آثاره بالعربية: (ديوان الوأواء الدمشقي) نشره مع ترجمة له إلى الروسية، و(البديع) لابن المعتز.

وكتب مقالات ورسائل بالعربية أورد صاحب معجم المطبوعات أسماءها.

وكتب بالروسية عن (خلافة المهدي العباسي)، و(تاريخ آداب اللغة العربية ابتداءً من نهضتها الأخيرة في القرن التاسع عشر) وهو يقول في ترجمة لنفسه بقلمه سنة ١٩٢٧: (أما مؤلفاتي العلمية التي بدأت بكتابتها وطبعها من سنة ١٩٠٤؛ فجلها إن لم أقل كلها في آداب العرب، من بحث وترجمة وشرح وانتقاد وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة، وعددها يربو على المائتين).

وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١[١].

١٤ ـ نولدكه: (١٢٥١ ـ ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م)

تيودور نولدكه: Theodor Noldeke من أكابر المستشرقين الألمان.

---

(١) ج١، ص٣٢٩.

ولد في هاربورج (بألمانيا) وتعلم في جامعات غوتنجن وفينة وليدن وبرلين. وانصرف إلى اللغات السامية والتاريخ الإسلامي فعيِّن أستاذاً لهما في جامعة غوتنجن (سنة ١٨٦١) فجامعة كيل (١٨٦٤) ثم في جامعة ستراسبورج (١٨٧٢) ومات في (كارلسروه: Karlsruhe). له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم؛ منها: (تاريخ القرآن)، و(حياة النبيّ محمد)، و(دراسات لشعر العرب القدماء)، و(النحو العربي)، و(خمس معلقات) ترجمها إلى الألمانية وشرحها[1].

ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثاً كثيرة، منها: رسالة في (أمراء غسان) ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق.

وله بالعربية: (منتخبات الأشعار العربية ـ ط)، واشترك في الإشراف على طبع (تاريخ الطبري) وترجمته إلى الألمانية.

قال الأب أنستاس الكرملي: لم نجد بين حملة العلم ـ المعاصرين ـ من بلغ تحقيقه.

---

(١) Dugat 06 Lol :2 وفيه أسماء كتبه، وقد جعل اسمه الثاني Wilhelm فرنسياً Guillaume، وآداب شيخو ١: ١١٦، والمستشرقون ١٤٢، ومعجم المطبوعات ٧٢٥، وفي Catalogue de Livres Orientaux الذي نشرته مكتبة Brill سنة ١٩٣٧ أسماء بضعة كتب مما ألفه جوينبول أو نشره.

كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والآرامية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها، وله تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسنة فضلاً عن معرفته بلغات الغرب كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية.

وفاته سنة ١٩٣١، والصحيح أنها في ٢٩ ديسمبر ١٩٣٠.

١٥ - سنوك هرخرونيه (١٢٧٣ - ١٣٥٥هـ / ١٨٥٧ - ١٩٣٦م) كريستيان سنوك هرخرونيه Christian Snouck Hurgronje مستشرق هولندي، ولد في أسترهوت، وتعلم بليدن وستراسبورج[١].

وأقام في «جدة» بالحجاز (سنة ١٨٨٤) سبعة أشهر، ويقول: إنه دخل مكة متسمياً بعبد الغفار، ومكث بها، في «سوق الليل» خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة قبل حلول موسم الحج، لانكشاف أمره بكلمات فاه بها وكيل قنصل فرنسا بجدة في بعض المجالس. ورحل إلى بلاد الجاوي، فأقام ١٧ سنة. وعيّن (سنة ١٩٠٦) أستاذاً للعربية في جامعة ليدن، خلفاً لدي خويه. ثم كان مستشاراً في الأمور الإسلامية والعربية، بوزارة المستعمرات الهولندية.

---

(١) ذيل المذيل ٣٥، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣: ٢٩٣، والتاج ٤: ٧٣.

له عدة كتب بالألمانية، عن الإسلام والمسلمين، أشهرها كتابه عن «مكة في القرن التاسع عشر» في مجلدين، نشره سنة ١٨٨٩، ومجموعة في ستة مجلدات، طبعها سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ في «الإسلام وتاريخه»، و«الشريعة الإسلامية»، و«بلاد العرب وتركيا»، و«الإسلام في المهاجر الهولندية»، و«اللغة والأدب»، و«ملاحظات في الكتب» ذكر فيه بعض المخطوطات وتواريخ كتابتها، و«فهارس الأجزاء المتقدمة»[1].

(١) أحمد علي، في مجلة «الحج» ٥:٣٩ من فصل مترجم عن مجلة «Islamic Review» الإنجليزية. وشكيب أرسلان، في مجلة الفتح ٢٩ شوال ١٣٤٩، وهو يذكر أنه «أسلم» في خلال إقامته بأندونيسيا، وحج.

قائمة المصادر

١ ـ **الاستشراق والتبشير وصلتهم بالإمبريالية العالمية:** د. إبراهيم خليل أحمد.

٢ ـ **الاستشراق والمستشرقون:** وجهة نظر، د. عدنان وزان.

٣ ـ **الإسلام والاستعمار:** ذ. أنور الجندي.

٤ ـ **الإسلام والمستشرقون:** د. عبدالجليل شلبي.

٥ ـ **الإسلام والنصرانية:** الإمام محمد عبده.

٦ ـ **آفاق جديدة للدعوة الإسلامية:** ذ. أنور الجندي.

٧ ـ **التبشير والاستعمار في البلاد العربية:** د. عمر فروخ.

٨ ـ **حضارة العرب:** غوستاف لوبون، ت: عادل زعيتر.

٩ ـ **الدراسات العربية الإسلامية في الجامعة الألمانية:** روي بارت.

١٠ ـ **دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين:** الشيخ محمد الغزالي.

١١ ـ **السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي**: د.مصطفى السباعي.

١٢ ـ **شخصيتنا**: ذ.أنور الجندي.

١٣ ـ **السيرة النبوية**: الحافظ عماد الدين بن كثير.

١٤ ـ **شمس الله تسطع على الغرب**: د.سجريد هونكه.

١٥ ـ **صفحات من أمجادنا**: ذ.أنور الجندي.

١٦ ـ **الفكر العربي الإسلامي**: ذ.أنور الجندي.

١٧ ـ **مختار الصحاح**: الإمام الرازي.

١٨ ـ **المستشرقون**: د.نجيب العقيقي.

١٩ ـ **المستشرقون والإسلام**: د.حسين الهراوي.

٢٠ ـ **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢١ ـ **مكايد يهودية عبر التاريخ**: الشيخ حسن حبنكة.

٢٢ ـ **موسوعة الحديقة**: ذ.محب الدين الخطيب.

٢٣ ـ **موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية**: الشيخ محمد علوي المالكي.

٢٤ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: الشيخ أبو الحسن الندوي.

٢٥ ـ **جداول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية**: د.إبراهيم جمعة.

فهرس الكتاب

الفهارس العامة

تَعْرِيفٌ بِالْكِتَابِ

في عَصْرِنا، تَجاسَرَ الكِبارُ والصِّغارُ، وفِئاتٌ شَتَّى مِنَ الفُسَّاقِ وَالفُجَّارِ، وَحَتَّى بَعْضُ العُقَلاءِ مِنَ الكُفَّارِ، عَلَى نَبْزِ الإسْلاَمِ بِأَلْقَابٍ هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ؛ وَالتَّهَافُتِ عَلَى التَّهَكُّمِ بِشَعَائِرِهِ، وَفَرَائِضِهِ، وَشَرَائِعِهِ؛ والتَّهَجُّمِ عَلَى نَبِيِّهِ الأكْرَمِ: سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

* * * *

وهَذَا التَّوَاطُؤُ غَرِيبُ الأَطْوَارِ، مُبَطَّنُ الأَبْعَادِ، مُتَنَوِّعُ النَّتَائِجِ؛ أَمَّا الغَايَةُ مِنْهُ فَتَكَادُ تَكُونُ وَاحِدَةً، وَهِيَ: تَشْرِيدُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَزَرْعُ الْكَرَاهِيَةِ لَهُ، وَتَضْلِيلُ الرَّاشِدِينَ، وَصَدٌّ عَنِ الدُّخُولِ فِيهِ، وَإِضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ فِي صَمِيمِ مُقَوِّمَاتِهِمْ:

(الإيمَانِيَّةِ... وَالتَّعَبُّدِيَّةِ... وَالأَخْلاَقِيَّةِ...)

* * * *

وَهَذَا الْكِتَابُ هُوَ «**كَشْفٌ**» لِلْحَقَائِقِ، وَ«**رُدُودٌ**» عَلَى أَبَاطِيلَ، وَ«**تَمْحِيصٌ**» لأَفْكَارِ وَأَقْوَالِ الْقَوْمِ.

وَهُوَ يُعَرِّفُكَ بِأَبْعَادِ «**حَمَلاَتِ الْكَرَاهِيَةِ**» ضِدَّ الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَخُصُوصاً «**الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ: مُرَبِّيَةِ الرِّجَالِ وَالأَجْيَالِ**»؛ وَقَدْ وَضَعُوا لَهَا كُلَّ الْخِطَطِ والسُّبُلِ وَالوَسَائِلِ، لإِفْسَادِهَا وَإِبْعَادِهَا عَنْ (**عَقِيدَتِهَا... وَعِبَادَتِهَا... وَرِسَالَتِهَا...**).

* * * *

فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَصَدَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨].

* * * *